سلسلة كتاب الأمة

أزمتنا الحضارية..

في ضوء سنة الله في الخلق

د. أحمد محمد كنعان



المحتويات

تقديم بقلم: عمر عبيد حسنة

الحمد لله الأكرم، الذي علم الإنسان ما لم يعلم، ميزه بالعقل، ومنحه حرية الاختيار، وبذلك جعله أهلا لتحمل المسئولية، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، فهو المخلوق المكلف.. والمسئولية في حقيقتها تكليف وتشريف، فهي تكليف يحمل الأمانة الثقيلة، التي عرضها الله على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فلو لم يكن مؤهلا للحمل، بما يمتلك من خصائص وصفات ومزايا وقدرات هائلة، لما نيطت به الأمانة من دون سائر الخلق. وهي تشريف أيضا؛ لأن اختياره من الله لحمل الأمانة دليل شرفه وتميزه وأهليته، والتكليف والمسئولية إنما هما في الحقيقة دليل الحرية وامتلاك الاختيار، فالمسئولية فرع الحرية فلا مسئولية بلا حرية.

والصلاة والسلام على البني الخاتم، الذي انتهت إليه تجربة النبوة التاريخية وأصول الرسالات السماوية، فكانت رسالته في قمة التجربة البشرية، قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينِ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..) (الشورى: 13) .

وطلب من أصحاب الرسالة الخاتمة، أن يتبصروا بأحوال الأمم السابقة ويستشرفوا التجربة البشرية التاريخية، فينقلوها من ورائهم إلى أمامهم، ليعتبروا ويحول اعتبارهم دون السقوط الحضاري، وانتقال علل الأمم السابقة إليهم، والتعرف من خلال الأمر بالسير في الأرض، والنظر في أحوال الأمم، على سنن وقوانين النهوض والسقوط. فالتاريخ العام هو المصدر الأساسي للفقه الحضاري، والمختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (الروم: 9) . فاكتشاف سنن السقوط والنهوض من لوازم البناء الحضاري، وإن شئت فقل: من لوازم الشهادة على الناس، والتأهل لقيادتهم، والقدرة على اختيار وتمثل الموقع الوسط. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: 143) .. وبعد: فهذا كتاب الأمة السادس والعشرون: (أزمتنا الحضارية في ضوء سنة

الله في الخلق) ، للدكتور أحمد محمد نعمان ، في سلسلة الكتب، التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات، برئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، بدولة قطر ، مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري، والتحصين الثقافي، وإعادة بناء الشخصية المسلمة، بعد أن افتقدت الكثير من فعاليتها، ومنهجيتها، وصوابها، وانحسر شهودها الحضاري، وتوقفت عن السير في الأرض، والتبصر بالقوانين، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وبذلك تكررت أخطاؤها، وتكرس تخلفها وعجزت عن التقويم والمراجعة، ومعرفة أسباب القصور، وتحديد مواطن الخلل والتقصير، فأصبح موقعها خارج التاريخ، والواقع المشهود، والمستقبل المأمول. والغياب الحضاري، أو الأزمة الحضارية، التي نعاني منها ليست بسبب الفقر في القيم، التي أكملها الله، وتعهد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تستلزمه خاصيتا الخلود والخاتمية في الرسالة الإسلامية، أو بتعبير آخر: ليست المشكلة، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، مشكلة قيم أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري، الذي يجّسر العلاقة بين القيم، وبين العصر، أو يساهم بتعديه الرؤية القيمية المحفوظة بالكتاب والسنة، ويفيد من خلود الرسالة الإسلامية وقدرتها على العطاء المتجدد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، لحل المشكلات الإنسانية، وهذه وظيفة الفكر أو عالم الأفكار الذي نعاني من التأزم فيه، لذلك نرى أن الخلط بين الأزمة الفكرية، التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم، وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها، كان وراء الكثير من المغالطات، والتراجعات، التي لا تزال تكرس التخلف باسم التدين.. لذلك نعتقد أن من الأبجديات الأولى الضرورية لقراءة المسلم اليوم: إزالة الخلط بين المباديء المحفوظة، والبرامج المطلوبة، بين القيم الثابتة، والأفكار الغائبة، التي تبسط تلك القيم على الواقع المعاصر، وتقومه بها. فالانحسار الحضاري، أو الأزمة الحضارية، التي نعاني منها اليوم هي أزمة فكر أولا وقبل كل شيء؛ لأن النسغ الفكري للحضارة الإسلامية، توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن الإنتاج، ونعتبر العصور الأولى هي نهاية المطاف، وغاية البعد الزمني بالنسبة للرسالة الإسلامية، حتى انتهينا إلى هذه المرحلة من الانحسار، والاستفزاز، والتحدي الحضاري، التي لا بد معها من العكوف على الذات، وتحديد مواطن الخلل والإصابة، واستلهام القيم، في محاولة للتوصل إلى صناعة فكرية معاصرة، قادرة على الحوار الإنساني، والمواجهة لكل الإصابات والأمراض، التي لحقت بالشخصية المسلمة، فأفقدتها صوابها، وإن لم تفقدها الإخلاص الذي لا بد من استصحابه في أية عملية نهوض. لقد اتُّهِم العقل المسلم بأن السبب في عجزه

وانحساره الحضاري هو اعتماده في النظر والتفكير على المنهج القياسي الاستنباطي، بمعنى أنه محكوم ومكبل دائما بأصل يقيس عليه، أو بنص يحول بينه، وبين الطلاقة في التفكير، فهو دائما فرع لأصل، يدور في إطار سابق، لا يمتلك الاستقلالية، والحرية. وأن السبب في انطلاقه وإنجاز العقل الأوروبي هو اعتماده على المنهج الاستقرائي، الذي يحرر العقل من القيود المسبقة، من الأنموذج الحاكم، أو المثال السابق، أو الآبائية كما يعبر عنها بعضهم، أخذا من قوله تعالى: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف: 23) . وهذه القضية، لا بد من التوقف عندها، بما تسمح به هذه العجالة، فمما لا شك فيه أن العقل المسلم يعتمد المنهج القياسي، أو الاستنباطي، في قضايا الفقه التشريعي، في إطار الحلال والحرام، وذلك عند إعمال العقل في النص الديني الموحى به لإدراك أبعاده ومقاصده، وتحديد علته، ومن ثم تعدية هذه العلة إلى الفرع الذي تتوفر فيه العلة نفسها ليأخذ حكم الأصل المقاس عليه، ويكاد هذا الأمر ينطبق على الإجماع بالمصطلح الشرعي (قياس الجماعة) والقياس (الاجتهاد الفردي) والاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، بمعنى أن العقل إنما يتحرك في إطار سابق محكوم ببعض القيود والضوابط التي جاء بها الوحي. أما فيما وراء الحكم الفقهي التشريعي، فالإسلام يعتمد المنهج الاستقرائي.. يعتمده في كشف السنن، والقوانين الثابتة.. والمطردة، التي تحكم الحياة والكون والأنفس، والآفاق، الأمر الذي يتأتى منه البصارة واستقراء حركة النهوض والسقوط والتداول الحضاري، بل لعل البرهان والدليل على ثبات السنن واطرادها هنا يتحقق من الاستقراء، وليس من القياس، فالسير في الأرض، واكتشاف السنن الحاكمة لحركة الحياة، أو فقه الحياة نلمحه في قوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا..) (آل عمران: 137) . وقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت: 53) .. فاكتشاف السنن والتوصل إلى الدليل الذي يبين الحق، إنما يتأتى من استقراء التاريخ، والواقع، وآيات الأنفس والآفاق، لكن المشكلة جاءت من الامتداد بأحد المنهجين، وتعطيل الآخر، خاصة عندما توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، وتعطل عن النظر في الأنفس والآفاق، في العصور المتأخرة، الأمر الذي أدى به إلى الانحسار الحضاري. وحقيقة أخرى لا بد من إيضاحها هنا، وهي أن المنهج الاستقرائي، الذي يعزى إليه الإنجاز والإبداع الحضاري، وإطلاقه للعقل من القيود، لم ينطلق من فراغ كما يتوهم بعضهم وإنما جاء الكشف والإبداع نتيجة النظر في سوابق قائمة، أيضا، تستقرأ أو تستنطق، والمقدمات أو السوابق التي تمكن من النظر موجودة في كلا المنهجين. وخلاصة القول: إن

الفقه التشريعي في الإسلام يخضع للمنهج الاستنباطي القياسي، وأن الفقه الاجتماعي والحضاري يخضع للمنهج الاستقرائي. والإصابة اليوم التي لحقت بالعقل والفكر الإسلامي لم تقتصر على أحدهما دون الآخر، وقد تكون من بعض مشكلات العقل المسلم المعاصر، الخلط بين المنهجين وعدم القدرة على استخدام كل في مجاله. وقضية السنن بمعنى القوانين المطردة والثابتة، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية، بما يمكن أن نسميه سنن التداول الحضاري، استيحاء من قوله تعالى (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: 140) والتي تعتبر معرفتها شرطا أساسيا للتبصر بالعواقب، وتؤهل معرفتها إلى تسخيرها والتمكن من الإنجاز والإبداع الحضاري، لا يتأتى إلا من السير في الأرض، الذي فرضه الله على المسلم بقوله: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ..) (الروم: 42) . هذا السير وهذا الاستقراء، الذي يحقق الاعتبار لأولي الأبصار، لم يأخذ بعد البعد المطلوب في العقل المسلم المعاصر، وعلى الرغم مما قيل حتى الآن من تعريف للسنن وأهمية إدراكها، وضرورة التعامل معها، إلا أن رصيدنا لم يخرج في ذلك عن بدايات ونظرات لم تتجاوز إلى الكنه، ولم تتسع لتشكل مجرى ثقافيا عاماً في الأمة، وإنما بقيت في إطار بعض المفكرين، والمتأملين، الذين يمكن اعتبارهم رواد الاستطلاع والاستشراف على الرغم من أن القرآن حض على ذلك في أكثر من موضع. لقد كان جيل القرون الأولى يتعامل مع السنن بشكل عملي وتلقائي، لأنهم فقهوا الوحي، أما نحن فلم نزل نبحث فيها، وننظر في مدى أهميتها، وإن كان الاهتمام بالموضوع بدأت تتسع مساحته في إطار الفكر والعقل الإسلامي في السنوات الأخيرة، على الرغم من اقتصار الأمر في معظم الأحيان على الحديث عن أهمية الموضوع وضرورته في إعادة تشكيل العقل وتصميم الذهنية الإسلامية، التي لا تزال تعاني من التخلف، بسبب الغفلة عن السير في الأرض والكشف عن سنن الله في الأنفس والآفاق، وأهمية ذلك في معرفة قيام المجتمعات وسقوط ونهوض الأمم. وبالإمكان القول: بأننا إلى الآن لا نمتلك الرصيد الفكري المأمول في هذا الموضوع، الذي تنبه له بعض الرواد مبكرا من مثل الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، الذي حاول لفت النظر إليه بمختلف الوسائل، إلا أن العقل المسلم المعاصر بسبب تشكيله الخاص لم يتح له أن يأخذ حقه من نظرات مالك، ومنبهاته الحضارية، وبقيت تلك النظرات عبارة عن بوارق، ونوافذ تستدعي الكثير من التفكير، والتأصيل والنظر، حتى تتبلور، ويتم تحويل الذهنية الإسلامية من الألم والإحباط، إلى الأمل، ومن الأمل والأماني إلى الفعل والعمل والممارسة. ذلك أن الرؤية القرآنية، والتوجيهات النبوية،

تؤكدان أن هناك قوانين وسننا، تحكم حركة التاريخ، والاجتماع البشري، لا تتخلف ولا تحابي أحدا، ولولا ذلك لما كان في الدعوة للسير في الأرض، والتبصر بالعواقب، والمآلات، التي انتهت إليها التجمعات البشرية أي معنى أو مردود، خاصة وأننا نحن المسلمين، نخضع للقوانين نفسها، حيث لا يكفي النظر في النتائج، كما هي حالنا اليوم، بل لا بد من النظر في المقدمات والأسباب التي انتجتها، حتى يتمكن المسلمون من التحكم بها، وأخذ الحذر من الوقوع فيها، وحتى لا ينتهوا النهاية نفسها، فالمقدمات نملكها، والنتائج تملكنا، وقد تكون إحدى آفات العقل المسلم اليوم أننا ندع ما نملكه إلى ما يملكنا. ولا شك أن معطيات الوحي، في الكتاب والسنة تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني، عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية، التي تحكم عالم المادة، ليعتبر أولوا الأبصار. وهنا قضية أخرى لا بد من لفت النظر إليها أيضا: وهي أن الدعوة للسير في الأرض، التي حث عليها القرآن، إنما هي في الحقيقة للاستدلال والتأكد من فاعلية السنن، التي قررها القرآن، وعدم تخلفها، من جانب، والامتداد والاكتشاف لسنن أخرى بالاستقراء والملاحظة، وديمومة النظر العقلي، من جانب آخر، وإلا فما قيمة القصص القرآني الخالد، إذا لم يشكل عقلا مدركا للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هي حكايات لتزجية الوقت أسقطها الزمن وطواها التاريخ؟ وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، في مجال الدراسات الإنسانية التي بلغت عند غيرنا شأوا بعيدا، أن نتوجه صوب فقه القصص القرآني، بالقدر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع، لنكتشف فقها حضاريا في إطار علوم الإنسان، والقوانين الاجتماعية، التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نحسد عليها. لكن إلى أي مدى يمكننا القول: بأن السنن التي تحكم النفس والمجتمع هي بنفس الدقة والصرامة التي تخضع لها المادة الصماء، التي لا خيار لها، كما يخضع لها الحيوان الأعجم المدفوع بالغريزة، والجانب المادي في الإنسان نفسه، وإلى أي مدى يمكن أن تتحكم بالإنسان الحر المختار، الذي يخضع في مسالكه وحركته لكثير من الظروف والتغييرات والمؤثرات؟ فالإنسان والواقع الإنسان، يختلف في طبيعته عن الواقع الكوني المادي من حيث صرامة السنن والقوانين، التي تحكم سيرورته، ولذلك يمكن القول: بأن كشف القوانين والسنن، التي تحكم المادة الصماء والكون المادي، تثمر المعرفة اليقينية، وعلى ضوئها يتعامل الإنسان مع الكون في جهوده

التي يبذلها في تسخيره لمصلحته، لكن الإنسان، والواقع الإنساني، ليس منضبطا كواقع المادة، فالعنصر الروحي في تكوين الإنسان، والإرادة الحرة، جعلا هذا الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب، التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية، الأمر الذي يجعله عصيا عن الفهم اليقيني، والاطراد الصارم، خاصة وأن الإنسان هو أداة التحليل ومحله في وقت واحد، بينما في إطار المادة والكون، فالإنسان هو أداة التحليل، أما المحل فشيء آخر منفصل عنه. وهذا لا يعني أن حركة الإنسان، ونهوض وسقوط الحضارات، تسير بشكل عشوائي عبثي، خالية من كل قانون ثابت، بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجهاتها ومساراتها العامة، ولو قبلنا جدلا أن خصائص وصفات المادة والحيوان الأعجم، يمكن أن تنطبق على الإنسان لأفقدنا الإنسان الكثير من حرية الحركة والاختيار، ووقعنا بلون من القدرية الرهيبة، التي تلغي إنسانية الإنسان، وعقله ومسئوليته، وتمنعه من القدرة على المداخلة والتحكم، وهو أهم ما امتاز به.. لذلك نرى أن الاعتقاد بأن معرفة السنن يحسم قضايا الاختلاف في الاجتهاد والتنوع والاختلاف في وجهات النظر ويؤدي إلى وحدة النظر، فيه الكثير من المجازفة والتجاوز والتداخل بين المنهج القياسي والمنهج الاستقرائي. من جانب آخر، فإن نفاذ السنن، والتحول الاجتماعي والإنساني الذي يخضع لها يتم ببطء شديد، وعمر مديد، قد يستغرق حياة الإنسان، لذلك يكون من الصعوبة بمكان رصد مساراته، والتعرف على اتجاهاته بدقة في الواقع المشهود. فالنظر إلى موضوع السنن، التي تحكم الأنفس والآفاق، من خلال بعض الجزئيات في الحاضر التي قد تبدو عصية عن الانسلاك في نطاق السنة، وخارجة عن الاطراد، بل ومناقضة لحقيقة، ومعادلة اجتماعية ثابتة، أو النظر إلى ذلك من خلال مدى زمني أقل من العمر المطلوب الذي يقتضيه التفاعل الاجتماعي، بمعنى غياب سنة الأجل المفترض للتغيير الاجتماعي عن أدوات الدراسة، قد يؤدي إلى لون من الضلال في الرؤية، واضطراب في الموازين، وإنكار لموضوع السنن أصلا، والانتهاء إلى لون من العبثية والوجودية المدمرة. من هنا نقول: إن الكشف عن السنن التي تحكم الحركة الاجتماعية لا يتأتى إلا من السير في الأرض، واستقراء التاريخ، والتعرف على القوانين التي حكمت حركة البشر، للإفادة منها للحاضر والمستقبل، فالحاضر على كل حال، ليس محلا كافيا للقراءة والاستقراء. فقد يكون الحاضر نتيجة لمقدمة في الماضي، وقد يكون مقدمة لنتيجة لا تظهر إلا في المستقبل، فاستقراء الحاضر وكشف السنن التي تحكم حركته، لا يكون دقيقا إلا باستصحاب الماضي وما يعطي من حقائق ثابتة لا يمكن أن يخرج عنها الحاضر.. فالإفادة للحاضر إنما تتحقق بالقدرة على قراءته من خلال

وضعه في موقعه المناسب من الحركة التاريخية. بينما يمكننا أن نلمح حدوث التفاعل في المجال المادي، واطراد القانون، في زمن قد لا يعتبر شيئا في عمر الفرد بعد انقضاء رحلة الاستكشاف التي قد تطول وقد تقصر. ولعل من الرحمة بالإنسان، والتكريم له، أن تكون السنن والقوانين، التي تحكم حركته، ملامح وتوجهات عامة، وبذلك تتضاءل الأخطاء ويمكن تجنبها، وتكون ساحة التفاعل والانفعال والحرية أوسع مدى، ولعلنا نستطيع أن نقول: بأن السنن في مجال المادة والكون هي أشبه ما تكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السنن التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلى غايته، وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة ومدى حركته. لذلك نرى علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة، الذين حاولوا وضع قوانين وسننا للدورات الحضارية وأسبابا للبناء الحضاري، لم يتمكنوا من الوصول إلى الحتمية على الرغم من أن دراساتهم ذات قيمة علمية رفيعة، إلا أنها لم تتسم بالصرامة والدقة التي خططت للمادة الصماء، ولا نزال نسمع بالتفسير المادي، والنفسي والسياسي، والاقتصادي، والمذهبي، والقومي، والقبلي، والديني.. للتاريخ، والتاريخ ثمرة لذلك كله وإن تفوق بعض العوامل في بعض الظروف.. ونستطيع أن نقول باطمئنان: بأن سننهم وقوانينهم وحساباتهم لم تنطبق تماما على الحضارة الإسلامية، التي كانت ولا تزال عصية على تلك القوانين بشكل صارم، وإن خضعت لها في بعض الجوانب. إن السقوط المريع للبناء الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية، دليل جديد بعد تجربة أكثر من نصف قرن، على سقوط الحتميات وقوانينها التي حاول فلاسفتها أن يخضعوا البشر لها كما أخضعت المادة. ونحن هنا، لا نريد أن نهون من الكسب البشري في كشف السنن في مجال العلوم والدراسات الاجتماعية، وإنما الذي نريد أن نبينه: أن تطبيق قوانين المادة الصماء على الإنسان الحر المختار المكلف المسئول، بنفس الصرامة واليقينية، فيه القليل من الصواب، والكثير من المجازفة، وذلك لخضوع الإنسان للعديد من الرغبات والأهواء والمؤثرات والانفعالات والحالات النفسية المعقدة، التي يمر بها؛ ولأن الإنسان أداة الكشف والتحليل ومحله، كما أسلفنا، فليس موضوع الدراسة شيئا خارجا عنه، فهو الأداة، وهو المحل، ومن هنا يحق لنا أن نفخر نحن المسلمين أن السنن الأساسية التي تحكم الحياة والأحياء عندنا يقينية؛ لأنها ليس من وضع الإنسان، إنما نستمدها من الوحي، من علم الله الذي لا يخطيء، وأقداره النافذة، وقد بسطها القرآن وبينتها السنة، وأن ما طلب إلينا

من السير في الأرض، إنما هو وسائل إيضاح معينة على الفهم والإدراك، لأحقية وصواب ويقينية السنن. إن المميزات التي اختصت بها الأمة المسلمة تؤكد على أن السنن التي تحكم الحياة والأحياء لا تتصف بالصرامة واليقينية التي تخضع لها المادة وحتى الجانب المادي في الإنسان أيضا. نلمح ذلك في: - مواثيق الله وما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم من أن تسليط الأعداء على الأمة المسلمة ليس تسليط استئصال، وأن إصابتهم للمسلمين وإضرارهم بهم، ما هو إلا أذى، وليس إنهاءً لهم، لأنهم أمة الرسالة الخالدة، والخاتمة، والشواهد التاريخية دليل ذلك.. فالأمة المسلمة تمرض وتضعف، لكنها تستعصي على الموت الذي لحق بالكثير من الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها. - وأن الأمة المسلمة لا تجتمع على الخطأ والضلالة، فلا تزال عصمة الأمة بعمومها قائمة ومستمرة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. - وأن هناك طائفة من الأمة لا تزال قائمة على الحق تحرسه، وتحول دون الانحراف عنه، وتضمن سلامة التواصل الثقافي بين الأجيال، لا يضرها من يخالفها حتى يوم الدين، والتي تشكل خميرة النهوض والإمكان الحضاري في كل حين. - وأن العشرين الصابرين من المؤمنين المقاتلين يغلبون مائتين، وذلك حتى بعد التخفيف. - وأن الاستمساك بالإيمان واق من آثار الهزيمة، وما تورثه من الوهن والحزن، وداع إلى الاستعلاء وعدم السقوط، والمعاودة للشهود الحضاري بعد الانكسار، إلى جانب عدم انطباق قانون الدورات الحضارية الذي انتهى إليه علماء التاريخ والحضارة والاجتماع، على الأمة المسلمة.. وهذه القضية يمكن أن نعتبرها من خصائص أمة الرسالة الخاتمة، ومواثيق الله لها، مهما حاولنا الحديث عن توفر أو تخلف الشروط والظروف. نعاود القول: إن الاجتماع البشري لا شك أنه يخضع لسنن قد عرض لها القرآن، وأكدها من خلال تاريخ البشرية الطويل، في القصص القرآني والبيان النبوي، وأن الله لم يخلق الناس عبثا، وأن من يعمل سوءا يجز به، وأن الإنجاز والإبداع والشهود الحضاري له شروطه ومقدماته وأسبابه وفروضه، وهو ليس عبارة عن أماني (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مَنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) (النساء: 123) .. هذا قانون الله، لكن المشكلة أن نقول: بانطباق قوانين المادة الصماء على الإنسان المختار، وهذا لا يعني أن حركة الإنسان خلو من القانون والنظام، وإنما يعني أن المعيار هنا عند الإنسان غيره عند وسائل الإنسان المادية. وأخشى ما نخشاه - ونحن نطرح موضوع سنن الله في الأنفس والآفاق من خلال ضغوط العجز والتخلف الداخلي التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتحدي، والاستفزاز المادي الخارجي - أن تغيب عنا النظرة المتوازنة، وهي: إدراك العلاقة بين

البعد الإيماني والغيبي، والسنن التي تحكم عالم الشهادة، ودور البعد الإيماني في الهداية إلى هذه السنن، والتفاعل الذي يحدثه الإيمان بين هداية السماء واستجابة الأرض لتحقيق الشهود الحضاري، وربط نتائج ذلك بقضية الإيمان.. إن اكتشاف انتظام هذه القوانين ، وعملها يقود إلى الإيمان بالله، والاستدلال بالأمور المادية والسنن الكونية على الأمور النفسية والإيمانية. ودور الإيمان في التنبه لهذه السنن، وإعمالها، وما يهب الإيمان والتقوى الفرد المسلم من استعدادات تدفعه إلى الإنجاز، ولا تقعد به عاطلا عن التعامل معها. نقصد أن العلاقة بين البعد الإيماني والإنجاز الحضاري، تحتاج إلى مزيد من النظر والتأمل.. لذلك رأينا بعض المدارس الحديثة التي كانت تتعامل مع المادة فقط، تراجعت لتقرر: أنه لا بد من إعادة صياغة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة، حتى تصبح قابلة للتطور والإنجاز التكنولوجي؛ لأن التكنولوجيا تأتي ثمرة لفلسفة، وعقيدة، ومعادلة نفسية معينة، وبالتالي فلا يمكن أن تتطور في مجتمع عقيدته تغاير أو تختلف عن مجتمع نشوئها.. لقد ربط القرآن كثيرا من النتائج المتحصلة من إعمال هذه السنن بالتقوى.. فمثلا: ربط بين التقوى وما تؤدي إليه من بصيرة في النظر للأمور، والحكم عليها بالحق والباطل، والصواب والخطأ.. يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) (الأنفال: 29) . وهناك ارتباط بين الإيمان والتقوى، وبين اكتشاف سنن التسخير وزيادة الرزق: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: 96) . وهناك ربط بين الإيمان والصبر الإيجابي وبين تجاوز المحن: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 155) . وربط أيضا بين الاستغفار والتوبة وبين نزول المطر وتحقق الخير.. وهناك ربط بين الانتصار في ميدان المبادئ، والانتصار على الشهوات وبين الانتصار على العدو. وهناك أيضا الربط بين الظلم الاجتماعي ومنع الفقراء حقوقهم، وبين فقدان الثروة.. وهناك أيضا الربط بين الفسق والترف، وبين الهلاك.. وهناك أيضا ربط بين غياب العدل وانقراض الأمم والحضارات. ونحن بسبيل الحديث عن سنن الله في الأنفس والآفاق، ومدى خضوع الحياة والأحياء لها، لا بد أن نوضح أنها قدر من قدر الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي شرعها وسنها وناط تكليف الإنسان بها، وربط جزاءه وقيمة إنجازه بمقدار ما يكشف منها، ويلتزم بها، فالقيام بأمانة الاستخلاف الإنساني لا تتم إلا بالتعرف عليها؛ لأن أمر تسخير الكون مرتبط إلى حد كبير بحسن إدراكها، ذلك أن التعرف عليها لا يمنح الإنسان القدرة على تسخير الكون فحسب، وإنما يمنحه قدرا كبيرا من التحكم بالنتائج، والتخفيف من الآثار السلبية ومغالبة قدر بقدر،

والفرار من قدر إلى قدر، وفي ذلك انفساح هائل أمام طاقات الإنسان غير المتناهية، وتحكم في الكون الذي خلق الله الإنسان سيدا له، وجعله محل تسخيره. والسنن التي تحكم الكون والحياة قدر من قدر الله تعالى كما أسلفنا والتعرف عليها والانضباط بمقتضياتها هو حقيقة التكليف، وحقيقة الإيمان، والتوكل، وهي مظهر من مظاهر العدل الإلهي المطلق، حيث لا يصح غير ذلك على الله سبحانه وتعالى ، فكيف يصح عدلا أن يعطى من لا يعمل، ويحرم من يعمل، وكيف يمكن للإنسان أن يستجيب لأمر الله، دون معالم هادية، وأسباب موصلة إلى النتائج؟

ويمكننا أن نقول: إن الانحسار الحضاري، الذي يعاني منه المسلمون اليوم كان بسبب العدول عن الانضباط والانسلاك بالسنن، التي شرعها الله للشهود الحضاري (الشهادة على الناس والقيادة لهم) : ونخشى أن نقول: إن بعض علل الأمم السابقة التي حذرنا الله منها، والتي كانت سبب انحسارهم الحضاري تسربت إلى المسلمين، في عصور التخلف والانسلاخ عن الدين، وهي ما يمكن أن نعبر عنه بالغزو الفكري في المجال الديني: من عدم الاعتقاد بثبات السنن، والتوهم بأن الاعتقاد أن الأسباب توصل إلى النتائج يتعارض مع الإيمان بقدرة الله الذي شرع الأسباب وقدر أن تكون موصلة للنتائج، ويناقض التوكل، ويتعارض مع قدر الله، فكان العدول عن كشف السنن، هو الذي أورثنا الاستنقاع الحضاري، الذي نعاني منه ونظن أننا أكثر إيمانا ويقينا، كما فعل رجال الكنيسة، فأوقفوا عجلة الحضارة والتقدم العلمي.

وقد تكون المشكلة أو بعض جوانبها، في الخلط بين السنن الجارية التي تتطلب فعل مقدمات تحكمها نتائج، وبين السنن الخارقة التي لا تخضع للمقدمات والنتائج، ومن ثم الاستشهاد بالآيات التي غالبا ما تنصرف إلى السنن الخارقة، في مجال السنن الجارية، وبذلك خروج عن المنهج، وضياع عن السنن الجارية والخارقة معا.

ويتفرع عن هذا أيضا: ضرورة مراجعة وتحديد مصطلح الغيب الذي ورد ذكره في الكتاب والسنة وهو ما اختص الله بعلمه، فقد يطلق الغيب ويراد به الماضي (ذلك من أنباء الغيب) ، وقد يطلق على الأمر الغائب عن ساحة المشاهدة، وقد يطلق على المستقبل في عالم الشهادة نفسه، وقد يطلق على العالم الآخر (ما بعد الموت) ، وهذا التحديد يمنحنا فرصة ومدى أكثر رحابة لجولات العقل، وكشفه، ومساحاته،

ويجعلنا أكثر اطمئنانا عندما نحاول رصد المقدمات والأسباب في الحاضر، والتنبؤ بالنتائج في المستقبل أننا لا نقترف إثما، ولا نرجم بالغيب، ولا نتدخل بعلم الله الخاص به سبحانه. وعلى الرغم من أن الغيب، بمعنى العالم الآخر، له سننه وقوانينه، وطبيعته المختلفة، وأن مصدر معرفته هو الوحي فقط، ودور العقل هو فهم الوحي دون الاستقلال بالنظر، إلا أن مفهوماته العامة، كما جاء بها الوحي، لا تخرج عن المعقولية من ربط الأسباب بالمسببات، والعلة بالمعلول، والمقدمات بالنتائج؛ لأنه منطق العدل الإلهي، كما أسلفنا.. فالدنيا كلها أو عالم الشهادة، مقدمة ومزرعة للعالم الآخر، وواقع المؤمن في الآخرة مرهون بما يقدم في الدنيا، وما يفعله في الدنيا بدافع ما يأمل في الآخرة من نتائج على عمله. فالمؤمن يشعر أن عمله واختياره وإنجازه في الدنيا له دور كبير في تحديد مستقبله ومصيره في الآخرة. ألا يحق لنا بعد هذا، أن نستغرب عزوف المسلمين عن دراسات المستقبل من خلال التعرف على السنن وملاحظة اطرادها، والمستقبل عندهم لا تحده الدنيا وتغيب عنهم عمليات التخطيط واستشراف المستقبل بعد أن أصبح علما له مقوماته واختصاصاته؟ لقد ربط الإسلام إمكانية الإنجاز بمعرفة الأسباب، وكشف السنن، التي تحكم الكون وعالم الحياة والأحياء، وقدم القرآن ذو القرنين) أنموذجا متجسدا لربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمة لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن نظريا. فذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سببا فأتبع سببا، وكان له التمكين في الأرض؛ لأنه عرف السنن وانضبط بها: سار في الأرض وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، فكان أشبه بالمهندس الذي عرف أسباب التردي، ووسائل التمكين، في الأرض، ووضع الخطط، وأشرط الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.. وقد تكون العودة إلى النص القرآني والوقوف أمام هذا الأنموذج بدون حواجز، أدعى إلى التأمل المطلوب: قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا

لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (الكهف: 83-97) .

وبعد: فهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، للأخ الدكتور أحمد محمد كنعان ، لا شك أنه يعتبر محاولة متقدمة في هذا المجال، تفتح الأبواب والنوافذ لمزيد من الدراسات والبحوث في هذا الموقع الحيوي الهام والغائب بالنسبة لاستئناف المسلمين دورهم الحضاري، ومعالجة حالة الركود والانحسار، التي يعيشونها.

ويمكن أن نقول: بأن الكتاب مساهمة طيبة وإن كان لا يخلو من بعض الاجتهادات التي لا تزال تستدعي الكثير من الحوار والنقاش والتفكير والتأصيل.

وحسبنا في هذا الكتاب أنه يستدعي موضوع سنة الله في الخلق إلى ساحة اهتمام العقل المسلم بعد هذا الغياب الطويل، ليبدأ رحلة التفتيش عن مواطن الخلل، ويدرك أسباب القصور، فيستدركها، ويصوب المسيرة، ويمارس عمليات النقد والمراجعة والتقويم في ضوء تلك المقاييس السننية التي لا يمكن أن تتم أية عملية مراجعة دقيقة بدون إبصارها، والتي لا تزال غائبة بشكل أو بآخر عن ساحة الفكر والعمل الإسلامي، والله من وراء القصد.

***

المقدمة

إن الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد:

فإن المرض سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه..

يصيب الإنسان فيعطله عن القيام بشئونه، وقد يتفاقم فينتهي به إلى الموت.. وكذلك هي حال الأمم. فإنها جميعا تخضع لسنة المرض، كما يخضع الأفراد، وتؤكد لنا أحداث التاريخ أن الأمة الإسلامية لم تكن استثناء من هذه السنة الإلهية المطردة، فقد تعاقبت عليها أمراض شتى على مدار تاريخها الحافل بالأحداث الجسام، ولكنها كانت في كل مرة تواجه المرض بنفس مطمئنة، وعزم لا يلين، وتوكل على الله عز وجل ، لا يدانيه ريبة، ولا عجز، ولا كسل.. وما هو إلا قليل حتى تقوم من وعكتها، وتنطلق من جديد لإتمام واجبها الجليل، الذي ناطه بها رب العزة سبحانه، وهو واجب الشهادة على البشرية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: 143) .

لقد كان هذا هو حال أمتنا الإسلامية في مواجهة ما ألم بها من أمراض على مدى القرون الماضية، إذ لم يكن المرض غير مرحلة عابرة في حياتها، لا تلبث بعده أن تقوم إلى أداء واجب الشهادة.

والشهادة على الناس.. ليست مجرد (فرجة) أو تسلية.

بل هي: فعل وقرار..

فعل.. يبتغي تبليغ رسالة التوحيد للبشرية، كل البشرية. وقرار.. يتضمن معنى القوامة على البشرية، فهذه الأمة التي اختارها الله عز وجل لتكون (خير أمة أخرجت للناس) من واجبها –وقد خصها ربها بهذا التكريم– أن تكون (الراعية) في بيت البشرية الكبير.. تبين للناس الحق، وتأطرهم عليه أطرا، وتبين لهم الباطل، فتصدهم عنه صدا، فهذا هو السبيل لكي يستقيم أمر الدنيا، وتعيش البشرية الحياة الكريمة، التي أرادها لها خالقها.. سبحانه..

واليوم.. نرى هذه الأمة التي يفترض فيها أن تكون (الشاهدة) وقد حقت عليها سنة المرض، وسرى في أوصالها الوهن، الذي لم يكن بطبيعة الحال وليد الحاضر وحده، بل كان نتاج عصور متطاولة من المحن

والرزايا والبلايا والخطوب.. مما جعل هذه الأمة تعيش اليوم على هامش الأحداث، وقد خرج القرار من بين يديها، وأصبح في أيدي (الآخرين) الذين راحوا يخططون ويدبرون ويكيدون.

وقد كان من نتيجة هذا الوضع المقلوب أن تخلفنا عن ركب الحضارة أشواطا بعيدة، ليس في ميدان واحد من ميادين العلم أو السياسة أو الاقتصاد، بل في تلك الميادين جميعا، بما فيها ميدان الإيمان نفسه، فأمسينا في الغالب مسلمين بالعنوان فحسب، وأما المضمون فذلك شأن آخر

نحن مسلمون.. هذا صحيح إن كان الإسلام مجرد نطق بالشهادتين، وبضع ركعات في اليوم والليلة، وصوم أيام من كل عام..

لكن الحقيقة غير هذا.. فالإسلام ليس مجرد شعائر تعبدية تؤدى في دقائق معدودات، وإنما الإسلام حياة متكاملة يتجه كل نشاط فيها إلى بارئ الكون سبحانه، لا دقائق معدودات، بل العمر جميعه، بكل أيامه وساعاته وثوانيه.. وصدق الله العظيم الذي يبين لنا هذه الحقيقة ناصعة في محكم التنزيل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56) . وحين تعود حياتنا عبادة خالصة لله وحده، حينئذ يمكن أن نستعيد مكاننا تحت الشمس، وأن يعود القرار في أيدينا، وأن نعود كما كنا في يوم من الأيام شهداء على الناس.

وهنا يبرز السؤال المرير.. كيف السبيل إلى ذلك؟ هذا السؤال الذي لا أشك أنه يتبادر إلى أذهاننا جميعا..

وأقول: إن الجواب الذي لا يكاد يختلف عليه اليوم مسلمان هو (العودة الصادقة إلى نبع الإسلام الصافي) غير أن هذا الجواب – للأسف – لا يكاد يقدم أو يؤخر في حل المشكلة لأنه جواب فضفاض.. عام.. شامل.. لا يبين لنا: كيف تكون البداية؟ ولا كيف نتابع المسير؟

وأرى في هذا المقام – كما قرر من قبل معظم المهتمين بالمشكلة – أني لا أملك الآن جوابا وافيا شافيا عن هذه التساؤلات، غير أنني من خلال معايشتي الطويلة للعمل الإسلامي، وبخاصة في السنوات القليلة الماضية، التي شهدت ما اصطلح على تسميته (الصحوة الإسلامية) أستطيع أن أجزم بأن العمل الإسلامي

ما يزال يفتقد إلى المنهج الواضح، الذي يقوم على تحليل دقيق للمشكلة، وتحديد موضوعي للأسباب والعوامل، التي أدت إليها..

ومن هنا انطلقت فكرة هذا الكتاب، الذي يعد بمثابة محاولة للبحث عن الأسباب والعوامل، فالبحث عن الأسباب والعوامل التي تقف وراء تخلفنا الحضاري، يعد مرحلة لا محيص عنها، قبل التفكير بوضع الخطط والبرامج، التي تبتغي الإقلاع نحو مستقبل جديد.

والحق.. إن هذا الكتاب ليس إلا إضافة للأبحاث والدراسات التي سبقته إلى تناول الأزمة الحضارية، التي تعيشها اليوم أمتنا الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ولعلي أتذكر هنا على وجه الخصوص تلك الأعمال القيمة التي قدمها للمكتبة المفكر الأستاذ (مالك بن نبي) تحت عنوان (مشكلات الحضارة) ، فقد أبدع مالك رحمه الله في تحليل أسباب أزمتنا الحضارية، من خلال رؤية متميزة للسنن التي تحكمها، فساهم بذلك في تصحيح النظرة للأزمة، حيث قدمها للناس بصيغة قوانين قابلة للفهم، ومن ثم قابلة للتسخير في حل هذه الأزمة.

كما أشير في هذا المقام إلى السلسلة التي قدمها المفكر الأستاذ (جودت سعيد) تحت عنوان (أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع) والتي تعد بحق إضافة طيبة في هذا المجال إلى جانب عدد كبير من الدراسات والأبحاث التي ظهرت في غضون السنوات القليلة الماضية في ساحة الفكر الإسلامي، وكان لكل منها فضل في إلقاء المزيد من الأضواء على جوانب الأزمة المتعددة.

وقد شعرت من خلال مطالعتي لتلك الأعمال القيمة أنها – على تفاوت بينها – قد أولت موضوع (سنة الله في الخلق) اهتماما خاصا، على أساس أن التعامل مع الكون المحيط بنا لا يتم بصورة صحيحة إلا بعد فهم السنن الربانية، التي جعلها الله عز وجل أبوابا للتعامل مع موجودات هذا العالم.

لكن الملاحظ أن تلك الأعمال التي تحدثت عن (السنن) قد انصرفت في الغالب لبيان مدى تقصير المسلمين في كشف ودراسة هذه السنن، دون التفصيل في طبيعة هذه السنن، وخصائصها، وعلاقتها بالجهد البشري، وقد وجدت ضرورة هذا التفصيل، حتى نعرف كيفية الوصول إلى تسخير السنن، وهو غاية دراستنا لها.. وربما كانت الإضافة الحقيقية في هذا الكتاب أنه يقدم دراسة تفصيلية لطبيعة السنن

الربانية، التي تحكم كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود، وهو ما لم تتعرض له الدراسات السابقة إلا بصورة عابرة في الغالب.

وقد قسمت الكتاب إلى: مدخل، وثلاثة فصول..

* فأما (المدخل) فقد ناقشت فيه العلاقة العضوية التي تربط ما بين الجهد البشري، وبين السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه، وبينت كيف أن الجهد البشري لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا بفهم السنن المتعلقة به، ومعرفة كيفية تسخيرها.

* وفي (الفصل الأول) عرضت أسباب اهتمامنا بالحديث عن السنن، مع بسط دعوة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف للسير في الأرض، والنظر في آيات الله (أو سننه) للاهتداء بها في التعامل مع مخلوقات الله التي تخضع جميعا لهذه السنن.

* كما عرضت في هذا الفصل أيضاَ خصائص السنن، وبينت كيف أنها تمثل قوانين عامة شاملة، تتصف بالثبات والاطراد، ويخضع لها كل مخلوق من مخلوقات الله المادية وغير المادية، كما تناولت بالتفصيل تلك الظروف والحالات التي يحصل فيها خرق للسنن، أو الخروج بها عن مألوف البشر، كما هي الحال في المعجزات والكرامات..

* وأما (الفصل الثاني) فقد خصصته لمناقشة عدد من القضايا الهامة، التي لها مساس مباشر بأزمتنا الحضارية الراهنة، وذلك في ضوء ما بينته في الفصل السابق عن خصائص السنن.

* وفي الختام جاء (الفصل الثالث) بمثابة تلخيص للبحث، واستخلاص لأهم النتائج التي انتهيت إليها من خلاله.

أسأل الله العلي العظيم أن يجعل في هذا العمل نفعا وفائدة، وأن يتقبله مني خالصا لوجهه الكريم.

د. أحمد محمد كنعان

***

مدخل: (الفكرة. العمل. السُّنة)

.. بعد أن نفخ الله عز وجل من روحه في قبضة الطين، واكتمل خلق آدم في أحسن تقويم، أمر الله ملائكته بالسجود لهذا المخلوق، فسجدوا.. وفي هذا الجو المهيب من التكريم الرباني، بدأ عهد الإنسان في هذه الحياة.. ومن رحمة الله عز وجل ، أنه لم يسلم هذا المخلوق لمصيره الذي بدأ للتو، من غير زاد كاف من المعرفة، التي تعينه على التعايش مع العالم الذي وجد فيه، والذي كان مجهولا تماما بالنسبة له.. فعلمه الأسماء (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤلاء إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 31) .

❋ فماذا تعني تلك الأسماء التي تعلمها آدم عن ربه؟

إنها – كما يتفق معظم المفسرين – تعني نوعا من العلم الكلي بطبيعة العالم، الذي سيحيا فيه آدم، وذريته من بعده .. أو هي فكرة مجملة عن العالم لكي يتمكن آدم وذريته من فهم هذا العالم، والتعامل معه، تعاملا إيجابيا فعالا..

ويتبين لنا من هذه الإشارة القرآنية في قصة خلق آدم، واستخلافه، وظيفة (الأفكار) في بناء الحضارة الإنسانية.. وقد أثبتت وقائع التاريخ أن أية أمة من الأمم لا بد أن تنطلق في دربها الحضاري من مجموعة من الأفكار، التي على أساسها تشيد صرح حضارتها.

ويقدم لنا الواقع شواهد عديدة، على أن سلوك الأفراد في مجتمع من المجتمعات ما هو إلا الترجمة العملية لما يؤمنون به من أفكار، ولهذا السبب نجد المجتمعات تسمو، أو تنحط، أو تبيد، تبعا لطبيعة الأفكار، التي يعتنقها أبناؤها.

.. وحسبنا للتدليل على وظيفة الأفكار في المسيرة الحضارية، أن نذكر، بأن معجزة الإسلام باقية على الدهر، قد تمثلت في كتاب الله الكريم، الذي ضم بين دفتيه مجموعة من الآيات، التي تنطوي كل منها على فكرة أو مجموعة من الأفكار.. وقد استطاع القرآن بهذه الأفكار أن يبدل حياة العرب من حال إلى حال،

وأن يصوغ منهم أمة واحدة متآلفة، متراحمة، بعد أن كانوا قبائل متفرقين، يفتك بعضهم ببعض لكن الملاحظة التي تستحق الانتباه هنا هي أن الفكرة لا تؤدي وظيفتها في حياة الناس بصورة تلقائية، بل لا بد لها لكي تفعل فعلها من جهد بشري مكافئ، يترجمها إلى فعل، فالفكرة من هذه الوجهة تشبه (الدليل) الذي ترفقه الشركات الصانعة مع الأدوات والأجهزة التي تصنعها، وتبين فيه مواصفات كل أداة أو جهاز، وطريقة التشغيل.. وغني عن البيان أن الفائدة من هذا الدليل لا يمكن أن تتحقق بغير ترجمة التعليمات التي فيه إلى أفعال.. فإن قال لك الدليل مثلا: (صل الجهاز بمصدر التيار الكهربائي) ثم لم تفعل ذلك، فهل تتوقع أن يعمل الجهاز، وأن ينجز المهمة المرجوة منه؟ بالطبع لا، وكذلك الفكرة، فهي تظل مجرد خاطر، يجول في الوجدان، حتى يحولها الإنسان إلى فعل. ولكن مع هذا فإن اجتماع العاملين معا (الفكرة والفعل) لا يكفي لإخراج الفكرة إلى حيز الواقع، بل لا بد من عامل ثالث مكمل لهما، وهو أن تكون الفكرة قابلة للتنفيذ العملي، أو بمعنى آخر أن تكون موافقة لسنة (قانون) من السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، فقد قدر الله في هذا الوجود لكل أمر سنة خاصة به، لا يتم إلا من خلالها..

* ونضرب لذلك مثلا الفكرة التي تقول: (إن الإنسان أصبح اليوم قادرا على الانتقال ما بين أوروبا وأمريكا في غضون ساعات قليلة) فهذه الفكرة تبدو ممكنة التحقيق من الناحية النظرية، غير أن محاولة تحقيقها بالركوب على حصان مثلا، يجعلها فكرة مستحيلة التنفيذ؛ لأنه ليس في وسع الحصان أن يتحرك بسرعة تكفي لقطع المسافة القصية ما بين قارتي أوروبا وأمريكا في بضع ساعات، إضافة إلى أن البحر يفصل ما بين القارتين، وليست السباحة من طبيعة الحصان.

* ويمكن أن نسوق بالمقابل الفكرة التي تقول: (إن جيشا ما يمكن أن ينتصر على جيش آخر يفوقه في العتاد والعدد عشرة أضعاف) فهذه الفكرة تبدو من الناحية النظرية مستحيلة، لولا أن وقائع التاريخ أثبتت حدوث مثل هذا الانتصار الباهر، بل لقد أكد القرآن الكريم إمكانية وقوع انتصار كهذا وتكراره في صورة سنة مطردة لا تتخلف، ولكن بشروط الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) (الأنفال: 65) .. مما يعني أن سنة انتصار الجيش على جيش أكبر منه وأقوى ممكنة التحقيق،

ولكن بعد توفير الشروط التي بينتها الآية الكريمة، وما لم تتحقق هذه الشروط فإن انتصار الجيش الضعيف يظل ضربا من الخيال أو المستحيل.

ونلاحظ من خلال هذين المثالين اللذين سقناهما أن الفكرة ذاتها يمكن أن تبدو من الناحية النظرية واقعية أو مستحيلة، إلى أن يجيء التنفيذ العملي الذي يقطع بواقعيتها أو باستحالتها.. مما يعني أن الجهد البشري يتطلب شروطا ثلاثة لكي يكون جهدا ناجحا، وهذه الشروط هي:

(1) الفكرة..

(2) توافق الفكرة مع سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق..

(3) اقتران ذلك بالعمل..

وانطلاقا من هذه المقدمة الموجزة، نصل إلى تحديد معلم هام من معالم الأزمة التي تمر بها اليوم عقلية كثير من المسلمين.. هذه العقلية التي غدت طافحة بالأفكار النظرية المجردة، ولكنها ما تزال – على الرغم من ذلك – عاجزة عن وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ الفعلي، أو هي ما تزال مقصرة في تسخير هذه الأفكار بطريقة واقعية، تجعلها على أكبر قدر من الفعالية.. في حين أن أصول هذه الأفكار نفسها قد نهضت في زمن من الأزمان بأمتنا العربية، بل وبالجنس البشري كله نهضة تفوق الخيال وحين ندقق النظر في أوضاع المسلمين الراهنة، ونستقرئ الوقائع التاريخية التي انتهت بهم إلى التخلف والانحطاط، نجد أن هذه الأمة ترجع في جزء كبير منها إلى الغموض الذي يسود فكر كثير من المسلمين حول طبيعة السنن، وعلاقتها بالجهد البشري.. فكثير من المسلمين اليوم لا يعيرون مفهوم السنن ما يستحقه من اهتمام، وكثير منهم لا يدركون أصلا مفهوم (سنة الله في الخلق) إدراكا صحيحا، فنراهم يرفضون عن وعي، أو غير وعي علاقة ارتباط النتائج بأسبابها؛ لأنهم يظنون أن القول بارتباط النتائج بأسبابها ارتباطا ضروريا يعني الحتمية على الله عز وجل ، ومن ثم يعني تعطيل الإرادة الإلهية ومن هنا كانت الأزمة، ونعني بها نسبة النتائج إلى غير أسبابها، وترسيخ الاعتقاد، بأن علينا أن نعمل وليس علينا أن ننظر في النتائج، فكان من نتيجة هذا الاعتقاد تعطيل دور (المحاسبة) التي تعد العين الساهرة، التي تميز بين الخطأ والصواب، وترشد إلى طريقة التصحيح.

وأسارع إلى القول: بأن نظام السنن، أو ارتباط العلة بالمعلول لا يعني أنه حتمية تسري على الخالق عز وجل ، بل يعني أن حكمته سبحانه اقتضت ارتباط هذه بتلك ارتباطا ضروريا، لكي يتمكن الانسان من تسخير ما في الكون في شئون حياته المختلفة؛ لأنه من غير هذا الارتباط، يتعذر عليه القيام بأمانة الاستخلاف في الأرض.

ومما لا جدال فيه أن الحتمية في السنن لا يمكن (لا عقلا ولا تصورا) أن تسري على الخالق العظيم؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الكون، وخلق كل شيء فيه، وقدر العلاقات المختلفة بين عناصره ومفرداته.. أي أنه سبحانه هو الذي قدر السنن على هذه الصورة البديعة المتناسقة، وخلق أسبابها، وقدر نتائجها، وجعل العلاقة بين السبب والنتيجة قائمة وفق نظام مطرد، قابل للتكرار والإعادة كلما توافرت شروطه.. ولقد أظهر الله عز وجل من خلال تاريخ البشرية الطويل، ومما جاء في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وسلم أن خرق السنن، والخروج بها عن مألوفها، لا يكون أبدا إلا بمشيئة الله، وأنه ليس في وسع أي مخلوق كان أن يتدخل في طبيعة هذه السنن، فيغيرها، أو يحرفها عن الطريقة التي قدرها الله عز وجل لها.

وحين ندرك –نحن المسلمين– إدراكا عميقا أن كل شيء في هذا الوجود خاضع لسنة لا تتبدل ولا تتحول، ثم نحّول هذا الإدراك إلى نتاج عملي من خلال تعاملنا الواقعي مع سنن الله في الخلق.. فعندئذ نصبح – بعون الله – قادرين على تسخير الكون من حولنا، وفق الطريقة القومية، التي أمرنا بها رب العزة سبحانه.. وبهذا نأمل أن نخرج من أزمة تخلفنا، التي عشنا عليها ردحا طويلا من الزمان، والتي كانت في جانب كبير منها نتيجة طبيعية لغفلتنا عن العلاقة بين الجهد البشري، وسنة الله في الخلق.. هذه الغفلة هي التي أوقعتنا في أغلال التواكل، الذي شلنا عن الحركة الفاعلة المؤثرة في أحداث العالم وثمة ثمرة طيبة أخرى، يمكن أن نجنيها من فهمنا الصحيح لعلاقة السنن بحياتنا، ذلك أن إيماننا بأن كل أمر في هذا الوجود خاضع لسنة، سوف يعيننا بإذن الله – على الخروج من متاهة الاختلاف والنزاع والتشتت؛ لأن كشف السنة التي تحكم أمرا من الأمور، سيجعل النظرة إلى هذا الأمر نظرة واقعية، وينقل التعامل معه من نطاق الفرضيات والنظريات القابلة للأخذ والرد والاختلاف، إلى آفاق العلم الذي لا جدال فيه ولا اختلاف.

كما نأمل أن يسهم فهمنا الصحيح للسنن، وتحكيم هذا الفهم بالتعامل مع الواقع في تخليص الصحوة الإسلامية المعاصرة من الاجتهادات المزاجية، التي انتشرت في صفوف بعض الجماعات، التي لم تضع حتى الآن مفهوم السنن في حسابها، ولم توجه بعض جهدها وفق معطيات هذه السنن، فنراها تخرج من مأزق، لتدخل في مأزق جديد.. وتستمر على هذه الحال قانعة بكل ما يترتب على أفعالها من نتائج، وهي تظن أنها تحسن صنعا وكثيرا ما نسمع الآية الكريمة (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) (آل عمران: 154) تتردد بعد كل محنة، لتبدأ من جديد أحداث محنة جديدة بينما كان بالإمكان فعل شيء أفضل من هذا لو أننا بعد الإخفاق وقفنا وقفة تأمل وتدبر ومحاسبة، لنحدد موقع الخلل، ونعرف السنة التي على نهجها يجب أن تضبط حركتنا.. فعندئذ يمكن أن نصل لما نريد بإذن الله، وأن نحقق حلم الحضارة الإسلامية الذي عشنا عليه زمنا طويلا.

من هنا كانت أهمية الحديث عن أزمتنا المعاصرة من زاوية علاقتها بالسنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، علما بأن هذه الزاوية ليست إلا واحدة من زوايا عديدة جدا يمكن من خلالها النظر إلى هذه الأزمة.. فمما لا ريب فيه أن أزمتنا أزمة معقدة متشابكة الفروع، لا يستطيع أي باحث أن يدعي الإحاطة بملابساتها جميعا.

غير أن هذه الحقيقة –على فداحتها– لا تعني عصيان الأزمة عن الحل.. فمهما اشتد الظلام، وتلبدت الغيوم، سيبقى ثمة قمر منير.. وسيبقى ثمة أمل بالفرج.

***

الفصل الأول (سنة الله في الخلق)

دواعي اهتمامنا بسنة الله في الخلق

تعريف وخصائص سنة الله في الخلق:

1- الشمولية

2- الثبات

3- الاطراد

كشف سنن الله في الخلق

خوارق سنة الله في الخلق

السحر

المعجزة

الكرامة

دواعي اهتمامنا بسنة الله في الخلق

.. تنبع أهمية بحثنا في السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه من حقيقة أولية، وهي أن كشف السنن ومعرفة شروطها وخصائصها، يجعل الأمور، التي تخضع لهذه السنن في نطاق التسخير لنا نحن البشر.. أي إن معرفتنا بالسنن تجعلنا أقدر على تسخير الكون بما فيه من حولنا، والاستفادة من ذلك في تصريف شئون حياتنا، فضلا عن تحديد مسار سلوكنا وفق ضوابط تحدد المعالم والأهداف والسبل الموصلة إليها.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن تاريخ الإنسان فوق هذه الأرض قد بدأ منذ اللحظة التي اختار فيها حمل الأمانة، ورضي استخلاف الله له في الأرض، وأهم ما يعنيه هذا الاستخلاف منح الإنسان (القدرة العقلية) لتكون مناط المسئولية الدنيوية والأخروية، وبها يتمكن من استكشاف العالم، وتمييز السنن التي تتحكم في المخلوقات المختلفة.. ومنحه كذلك (القدرة المادية) التي تمكنه من تسخير هذه المخلوقات في شئونه وحاجاته.

ولا شك في أنه لولا تمكين الله للإنسان في الأرض بمنحه هاتين القدرتين، لظل عاطلا عن الفعل الحضاري، ولظل -مثله مثل أي مخلوق آخر في هذا الوجود- غير قادر على تغيير شيء من حاله، التي وجد عليها منذ لحظة خلقه، ولما كانت حاله بأحسن من حال العصفور الذي خلقه الله قبل ملايين السنين، ولكنه على الرغم من هذه السنين الطويلة لم يتمكن من صنع رغيف خبز

بينما استطاع الإنسان بالمقابل أن يسخر العصفور لخدمته، كما سخر بقية المخلوقات، التي وقعت تحت طائلة يده، ومنها ما هو أقوى منه وأكثر عددا.. كما سخر كل ما وصلت إليه يده، وكثيرا مما لم تصل إليه يده.. وقد تم له ذلك خلال سنوات قليلة من تاريخه.

***

فهم السنن يفتح لنا آفاقا جديدة

ولعله من المناسب أن نذكر هنا قصة العبد الصالح (ذي القرنين) التي حكاها القرآن الكريم، لكي ندرك كيف يمكن أن تذلل المعرفة بالسنن الصعوبات التي تعترض حياة الإنسان، وتفتح له آفاقا جديدة، لم يكن يتوقع أن يصل إليها.. فقد استطاع ذو القرنين أن يفتح مشارق الأرض ومغاربها، وأن يحقق في حقبة قصيرة من الزمان انتصارات عسكرية، لم يحققها فاتح آخر في تاريخ البشرية.. فما هو السر يا ترى؟ وكيف استطاع أن يحقق مثل هذه الانتصارات الباهرة؟ لنستمع إلى القرآن الكريم يقدم لنا الجواب واضحا جليا: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف: 83-85) . فالسر إذن يكمن فيما أعطاه الله له من علم بالأسباب، كما جاء في التعبير القرآني البليغ، أو علم بالسنن، حسب التعبير الذي نستخدمه في هذا البحث، وهذا العلم بالأسباب أو بالسنن، هو الذي أمد ذا القرنين بتلك القدرات العظيمة، التي استطاع بها تحقيق أهدافه البعيدة والقريبة..

ولنتأمل معا قوله تعالى: (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (الكهف: 85) لندرك عظمة القدرة التسخيرية، التي منحها الله له، فاستطاع بها أن يفعل ما يريد..

" عن حبيب بن عمار ، قال: كنت عند علي رضي الله عنه ، فسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال: سبحان الله، سخر له السحاب، وقدر له الأسباب، وبسط له اليد ".

❋ وهكذا بدل ذو القرنين وجه الأرض، بما كشف الله له من سنن وسخرها له.

❋ وكم من سنة أثرت في حياة الإنسان تأثيرا عميقا، حين عرفها، وهيأ الله له كيفية تسخيرها.. وما سيرة الطاقة الذرية عنا ببعيد، فقد تمكن الإنسان خلال سنوات قليلة أن يسخر هذه الطاقة الهائلة في أغراض شتى، بعد أن عرف السنن التي تتحكم فيها، ولم يكن ممكنا له ذلك من قبل، حين كان يجهل هذه السنن جهلا تاما.

ويمكن أن نشير هنا إلى سنن كثيرة أثرت في حياة البشرية، ومنها مثلا تلك السنة التي تنبه لها العالم الرياضي الشهير (نيوتن) والتي صاغها فيما عرف باسم (قانون الفعل ورد الفعل) فقد تمكن الإنسان – بعد أن يسر الله له الظروف والإمكانيات المواتية – أن يستفيد من خصائص هذه السنة في مجالات عديدة من أبرزها اختراع المحركات النفاثة، التي ساهمت في تقدم صناعة الطائرات والصواريخ مساهمة أساسية، حتى أوصلت الإنسان إلى سطح القمر الذي ظل دهورا طويلة يتغزل به عن بعد.

من عود الثقاب إلى أجواز الفضاء وثمة مثال آخر يستحق منا وقفة تأمل طويلة، ونحن نتحدث عن دور الأخذ بالسنن في تقدم حياة البشرية.. ونأخذ هذا المثال من الحدث الذي ابتدأ به تاريخ الفضاء الأمريكي – ففي شهر آب (أغسطس) من عام 1932م أطلقت الجمعية الأمريكية للسياحة بين الكواكب صاروخها الأول، ولم يكن طوله يزيد عن 15 سم، وقطر قاعدته 7.5 سم، وكانت منصة الإطلاق مكونة من قائمين مصنوعين من خشب الصنوبر وقد غطيتا بكمية وافرة من الصابون لتسهيل انطلاق الصاروخ إلى الأعلى (تأمل) وقد وقف رئيس الجمعية (ديفيد لير) والمهندس (لورانسماننغ) يراقبان عملية الإطلاق من خلف أكياس الرمل وتفاديا لمشكلات الإشعال فقد كلف أحد المهندسين المساعدين بإشعال الصاروخ بعود من الثقاب وبعد ثانيتين دار المحرك كما كان مقدرا له، ولكن لم يلبث أن انفجر وطار إلى حيث وقع على بعد 170 م من منصة الإطلاق إنها –دون ريب– صورة غريبة عجيبة لا يكاد جيل اليوم أن يصدق أنها حدثت قبل خمسين عاما فقط، وأنها كانت هي البداية لعصر الفضاء، الذي لا يفتأ يطلع علينا كل يوم بكشوفات جديدة لا تكاد تصدق.

ومن المؤكد أنه لم يكن يخطر ببال أحد ممن شاهدوا تلك التجربة أنه لن يمضي سوى سنوات قليلة حتى يتمكن الإنسان من إرسال أول قمر صناعي، ليدور حول الأرض ، ثم سنوات أخرى قليلة ليطأ بقدميه أرض القمر .

وإذا ما قارنا الآن تلك الصورة للصاروخ الأول، مع الصورة الحالية التي عليها محطات الفضاء، فإننا نجدها أشبه بفيلم كارتوني هزلي ضاحك فأين مثلا ذلك الصاروخ الضئيل، الذي لم يتجاوز طوله بضعة سنتيمترات، من صواريخ اليوم، التي تناطح بقاماتها السحاب؟ أضف إلى هذا أن عملية إطلاق الصواريخ اليوم تتم تحت إشراف أعداد كبيرة من الفنيين والخبراء والعلماء، يزيد عن عشرة آلاف، موزعين في محطات

المراقبة والتوجيه المختلفة والموزعة في أرجاء عديدة من الولايات المتحدة ، وهؤلاء –بطبيعة الحال– لا يقومون بالمراقبة من خلف أكياس الرمل، كما فعل أولئك الرواد الأوائل، بل يقومون بالمراقبة عبر شاشات التلفزيون والرادار والكمبيوتر ، التي تعطي في نفس اللحظة جميع المعلومات المتعلقة بالصاروخ وبعملية الإطلاق.. وقد بلغت الصواريخ في أقل من نصف قرن درجة راقية من التطور، فأصبحت قادرة على الوصول إلى أية بقعة من الأرض، أو من كواكب مجموعتنا الشمسية المترامية الأبعاد، بحيث يمكن مقارنة الدقة في توجيه الصواريخ، وإيصالها لأهدافها بإصابة ذبابة تقف على رأس تمثال الحرية في نيويورك ، من بندقية قناص يقف على سطح الكرملين في موسكو وهذه – بدون ريب – نقلة نوعية متميزة، ما كان للعلماء أن يحرزوها لولا أنهم تعمقوا أكثر فأكثر في دراسة وفهم السنن المتعلقة بالطيران.. فإن هذا الفهم قد أمدهم بقدرات باهرة، استطاعوا بها تحويل الخيال إلى واقع، وجعل المستحيل ممكنا.

***

من الزهري إلى الأيدز.. رحلة أربعمائة عام نقطعها في عام واحد والمعرفة بالسنن – إلى جانب ما ذكرناه – توفر لنا الوقت، وتجعلنا أقدر على التحكم فيه، وهذا ما يعجل مسيرة الحضارة، ويدفعها للتسارع يوما بعد يوم.. ولعل سيرة مرضى الزهري والأيدز خير شاهد على هذه الميزة التي يتيحها لنا فهمنا العميق للسنن الكونية.. فمن المعروف أن تاريخ الداء الجنسي المعروف باسم (الزهري) أو (الأفرنجي) قد (بدأ في أوروبا حوالي عام 1493م في عهد الملك الفرنسي (كارل الثامن) الذي اشتهر بنزواته الطائشة.. فقد غزا هذا الملك الرعديد إيطاليا بموكب من الجنود المرتزقة، يجر خلفه ذيلا يضم أكثر من خمسمائة داعرة اصطحبن للمتعة والإيناس والليالي الحمراء.. وفي روما اجتمع هذا الملك (الذي يعتقد أنه من أوائل الذين أصيبوا بالزهري) مع رجل طائش مثله هو (البابا اسكندر السادس) الذي أصيب بالزهري كصاحبه وهناك فعل الاثنان الأفاعيل، مع من كان معهما من الجنود والغانيات.. وعندما قفل الملك راجعا من رحلته المشئومة بعد أقل من عام واحد كان قد أهدى أوروبا كلها مرض الزهري.

وما يستوقفنا من هذه القصة المخزية أن الزهري استمر ما يزيد عن أربعمائة عام يفتك بالزناة والشاذين والمنحرفين، يشوه أجسادهم، ويزهق أرواحهم، قبل أن يتمكن العلماء من معرفة الجرثومة التي تسببه (اللولبية الشاحبة) وقبل أن يتمكن العالم (فلمنغ) من اكتشاف عقار البنسلين (1928م) القادر على قتل

جرثومته واليوم.. نجد أن داءا جنسيا آخر قد ظهر ليعيد إلى الأذهان قصة الزهري، ولكن على وتيرة مختلفة.. ففي عام 1981م ظهر فجأة الداء الجنسي المعروف باسم الأيدز (أو داء نقصان المناعة المكتسبة) الذي انتشر كالوباء انتشارا مفزعا في أوساط الشاذين جنسيا بصورة خاصة، وأوساط المدمنين على المخدرات، ولا سيما منها التي تؤخذ عن طريق الحقن ، وكما كان الانحلال الأخلاقي وراء ظهور الإيدز وانتشاره، إلا أن الفارق الجوهري ما بين سيرة الزهري وسيرة الإيدز أن العلماء في نحو عام واحد استطاعوا فضح أسرار الأيدز، وعزل الفيروس المسبب له، بينما استغرق تحقيق ذلك أربعة قرون في حال الزهري.. وحين نبحث عن السر في تحقيق هذا الإنجاز العلمي الرائع فإننا نجده يرجع إلى ما أصبح اليوم في حوزة العلماء من معرفة السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، ومنها السنن المتعلقة بالمرض، فإن هذه المعرفة هي التي مكنت العلماء من التعجيل بفك رموز الأيدز، واختزال الزمن من أربعمائة عام إلى عام واحد.. وهذه دون ريب نقلة نوعية متميزة تستحق منا وقفة تأمل طويلة. وفي الحقيقة فإن هذا المثال الذي سقناه من عالم الطب يعبر عن سمة أصبحت بارزة من سمات العصر الحاضر، فقد أصبح العلماء اليوم – بفضل تعمقهم بفهم السنن الكونية – قادرين على كشف أسرار الاكتشافات الجديدة بصورة أسرع بكثير مما كان يجري في الماضي، كما أتاح لهم فهمهم للسنن التعجيل في تحويل أفكارهم النظرية إلى تطبيقات عملية (وقد أجرى بعض العلماء مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم فتبين لهم ما يلي:

* احتاج الإنسان إلى 112 سنة (1727 – 1839 م) لتطبيق المبدأ النظري الذي يبنى عليه التصوير الفوتوغرافي .

* واحتاج إلى 56 سنة (1820 – 1876 م) لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التليفون.

* وإلى 35 سنة (1867 – 1902 م) لظهور الاتصال اللاسلكي .

* وإلى 15 سنة (1925 – 1940 م) للرادار .

* و12 سنة (1922 – 1934) للتلفزيون.

* و6 سنوات (1939 – 1945 م) للقنبلة الذرية.

* و5 سنوات (1948 – 1953 م) للترانزستور .

* و3 سنوات (1959 – 1961 م) لإنتاج الدوائر المتكاملة.

وهكذا يبدو جليا أننا نقترب بخطى حثيثة من فهم العالم المحيط بنا، وتسخيره بصورة أكثر فعالية، وذلك نتيجة كشفنا للمزيد من السنن، وتعمقنا أكثر فأكثر في فهم هذه السنن، وهذا ما يزيد إيماننا بأهمية البحث في السنن، خاصة وأن التعامل مع العالم المحيط بنا لا يمكن أن يتم على وجهه الصحيح إلا من خلال معرفتنا اليقينية بالسنن التي تتحكم فيه؛ لأن تعاملنا مع هذا العالم بغير هذه المعرفة يعد ضربا من العبث، الذي لا يمكن أن يحقق لنا الأهداف، التي نصبو إليها..

***

سنة الله في الخلق بين القرآن والسيرة

.. والملاحظ من خلال السياق القرآني كثرة الآيات التي تحض المؤمنين على السير في الأرض، والتفكر في آيات الله المبثوثة في الوجود، حتى يلتفت العقل إلى النظام البديع الذي يحكم الأشياء، ويوجه الأحداث، فيستنبط من ذلك السنن، التي تتحكم في حركة الحياة وتطورها، ويعمل من ثم على تسخيرها في عمارة الأرض، وبناء الحضارة الإنسانية المنشودة.

وقد خصص القرآن الكريم جانبا كبيرا من سوره لعرض قصص الأمم الغابرة، ليلفت انتباهنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم، حين سلكت سبيلا معينا، وليلفت الانتباه كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها آخر الأمر.

وقد كان لهذا التركيز القرآني على أهمية النظر في الآيات، أو السنن التي يخضع الكون لها أثر عميق في نشأة الحضارة الإسلامية، ونموها واستمرارها، وتميزها عن سائر الحضارات التي سبقتها.. فهؤلاء العرب الذين لم يكن لهم علم، ولا معرفة بالسنن، التي تتحكم في حياة الأفراد والمجتمعات، جاء القرآن الكريم، فقدم لهم تلخيصا وافيا دقيقا عن تلك السنن، حتى إذا فهموها وأخذوا بها في حياتهم، تغيرت نظرتهم

للكون والحياة تغيرا جذريا، ولم يلبثوا أن أصبحوا أمة واحدة، يشد بعضها بعضا كالبنيان المرصوص.. كما اكتسبت الأمة الإسلامية – إلى جانب ذلك – قدرة باهرة على تسخير ما في أيديها (على قلة ما كان في أيديها) ، فاستطاعت بفضل الله أن تستفيد من ذلك في الانطلاق صوب (الآخرين) حاملة إليهم نور الهداية والرحمة، حتى انتشرت راية التوحيد خفاقة في أرجاء المعمورة.. وقد تم هذا الفتح المبين في سنوات معدودات لا تعد شيئا في عمر التاريخ

* فما الذي تغير بعد ذلك حتى عاد المسلمون فانتكسوا؟

* وكيف حَطَّ التخلف رحاله في ديارهم، بعد ذلك التاريخ المجيد ؟

للإجابة عن هذين السؤالين، لا بد أن نعترف ابتداء، بأن العوامل التي أدت إلى هذه النتيجة المأساوية عديدة، لا يكاد يحصرها عد. ولكننا مع هذا يمكن أن نردها جميعا إلى علة أولية، تولدت عنها العلل اللاحقة جميعا.. ونعني بها (الغفلة عن منهج الله عز وجل) ، وأهم ما تعنيه هذه الغفلة: تجاهل السنن الربانية، التي تحكم حياة الأفراد والأمم، وحياة كل شيء في هذا الوجود، والجهل كذلك بأن أي اتصال فعال مع الحياة، لا يمكن أن يتم على تمامه بغير الإيمان بهذه الحقيقة، وفهم هذه السنن، وتسخيرها على الوجه الصحيح.

وإن من الظواهر التي باتت بارزة في حياتنا نحن المسلمين اليوم.. ضعف اهتمامنا بمسألة السير في الأرض، والبحث والتنقيب عن السنن، التي يمكن أن تعيننا في تصريف شئونا المختلفة، وتذلل أمامنا الصعاب، وتيسر لنا أمر عمارة الأرض، وفق المنهج الذي يأمرنا إسلامنا بإقامته في واقع الحياة.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة حين نقرر أن مفهوم (السنة) نفسه قد فقد مكانته في مناهجنا الفكرية والعلمية، وراجت بيننا من ثم مقولة: (إن على المؤمن في هذه الحياة أن يعمل، ويخلص النية في عمله، وليس عليه أن ينظر في النتائج بعد ذلك؛ لأن النتائج قدر محتوم من الله عز وجل ، ولا يد للإنسان فيه) .

أي أنه حدث في تصور كثير منا نوع من الفصل بين الأسباب والنتائج.. علما بأن هذه النظرة القاصرة إلى المسألة، تنفي عن الجهد البشري المسئولية في صنع النتائج، وتوهم الإنسان في الوقت نفسه، بأن لديه نوعا من الحصانة تجاه الأخطاء، التي يرتكبها مادام قد فعلها عن نية صادقة

بل إن مثل هذه النظرة لتجعل المرء يعتقد بتميزه عن بقية خلق الله، مما يوقعه في الخطأ، الذي وقع فيه أهل الكتاب من قبل، حين قالوا: (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) (المائدة: 18) فقد ادعوا لأنفسهم مكانة عند الله ليست لهم، وحسبوا أنه سبحانه عفا عنهم عفوا أبديا، ظنا منهم بأن مجرد إيمانهم القلبي، أو مجرد انتسابهم إلى دين سماوي، سوف يشفع لهم عند بارئهم، وهذه هي حال كثير من المسلمين اليوم والحق.. أن القضية ليست كذلك أبدا، إذ لا استثناء لقوم دون قوم أمام شرعة الله أو سننه، وهذا ما أشار إليه بوضوح تام حديث النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حين قال: (يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وأباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)

فالأصل الذي تقوم الأعمال على أساسه هو التقوى، التي تعني: إخلاص النية، والأخذ بالأسباب، أو بالسنن، التي جعلها الله أبوابا لا تتم الأعمال الصالحة إلا من خلالها.. فالصلاح في الأعمال لا يكون بمجرد الإخلاص في النية، بل لا بد للعمل أن يوافق سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، حتى يكون صالحا بحق.. فإذا ما جمعنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى، وهي غموض النظر – عند كثير من المسلمين – إلى مسألة السنن، وعلاقتها بالجهد البشري، فإننا نكون قد حددنا بعض معالم أزمتنا الحضارية الراهنة:

فمن جهة.. نجد التصور السائد اليوم بين كثير من المسلمين يقوم على الفصل ما بين الأعمال والنتائج، ومن جهة أخرى نجد أن الأعمال نفسها تقوم على غير هدي من السنن.. علما بأن فصل النتيجة عن العمل، أو فصل المسبب عن السبب يناقض الفكر الإسلامي الأصيل.

وقد تناول الإمام العلامة ابن القيّم الجوزية هذه القضية بشيء من التفصيل في كتابه الأشهر (زاد المعاد) عندما كان يبحث في الأحاديث النبوية التي تحض على التداوي من المرض، فقال رحمة الله عليه: (..فقد تضمنت هذه الأحاديث الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافي دفع داء الجوع والعطش والحر

والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب، التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا، وإن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله، في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلا، ولا توكله عجزا) أهـ.. صحيح أن النتائج قدر من قدر الله عز وجل ، إلا أن مشيئته سبحانه قد اقتضت ارتباط النتائج بأسبابها، وهذا الارتباط أيضا قدر من قدر الله عز وجل ، نجد مصداق هذا في قوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (الأنفال: 17) فقد أثبت الرمي له، وهو السبب واحتفظ لنفسه سبحانه بالنتيجة، لكي يلفت العقل البشري إلى طلاقة القدرة الإلهية، لكن هذا لا يعني حصول النتيجة من غير رمي.. بل إن الرمي، ونتيجة الرمي، وارتباط النتيجة بالرمي.. كل أولئك قدر من قدر الله سبحانه.

وحين يستيقن العقل البشري هذه الحقيقة، ويتعمق في فهم سنن الله في الخلق، يصبح أقدر على فهم العالم، الذي يعيش فيه، كما يصبح أقدر على تسخير الكون في صالحه، وإن من يراقب الأوضاع المختلفة في أرجاء العالم، يدرك دونما عناء كبير، السبب الحقيقي، الذي جعل الدول المتطورة في مركز السيطرة على مقدرات الشعوب الأخرى، هذه السيطرة التي يظن معظمنا أنها ترجع إلى امتلاك تلك الدول قوى عسكرية ضاربة، وموارد اقتصادية غنية.. وهو ظن مبني على فهم خاطئ للتاريخ والواقع ، إذ كيف استطاعت تلك الدول أصلا، أن تحصل على تلك القوى، التي بين أيديها؟ أبالقوة وحدها، أم أن للعلم دورا في هذه القضية؟ ألم تكن الولايات المتحدة الأمريكية مثلا قبل قرنين من الزمان مجموعة من المستعمرات الإنجليزية المتناثرة .

فأين هي اليوم؟ ألم تصبح إحدى أكبر قوتين في العالم؟

ومثال آخر.. ألم تخرج كل من اليابان وألمانيا من الحرب العالمية الثانية مطحونتين، لا حول لهما ولا قوة؟ فأين هما اليوم؟ ألم تصبحا في طليعة الدول القوية، التي بات العالم كله يحسب حسابهما مع أنهما منزوعتا السلاح؟ فالسر إذن ليس في امتلاك القوة العسكرية، أو الاقتصادية، أو غيرهما، (مع إيماننا بضرورة العمل على امتلاك مثل هذه القوى) ، وإنما يكمن السر ابتداء في القدرة على تسخير القوى المتاحة، فعلينا أن

نتصرف في حدود ما نملك فعلا، لا أن نحلم بما هو خارج عن أيدينا، لأن مثل هذه الأحلام لا تثمر في النهاية إلاّ الحسرة والندامة.

وحين نتصرف فيما نملك وفق السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق، فإننا بهذا نستثمر الطاقات المتاحة على أحسن وجه، وإن لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد كانت سيرته العطرة حافلة بالشواهد الناصعة على أخذه بالأسباب، وتجنيده للطاقات البشرية والمادية والمعنوية خير تجنيد، مما كان له تأثير كبير في إغناء الجهاد النبوي، الذي أثمر في غضون سنوات قليلة، ما لم تثمر مثله محاولات بشرية أخرى، استغرقت مئات السنين.

ونريد هنا أن نقف عند شاهد واحد من تلك الشواهد في سيرته صلى الله عليه وسلم ، وهو حادث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، لنرى مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على الأخذ بالأسباب.. ويرجع سبب اختيارنا للهجرة دون غيرها إلى أن أمر هجرته صلى الله عليه وسلم كان يتعلق به تعلقا مباشرا، وقد كان صلى الله عليه وسلم موقنا بنصر الله (إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) (المائدة: 40) . كما كان واثقا من حماية الله له، (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة: 67) . لكنه لم يركن إلى ذلك وحده، بل بذل غاية جهده في تهيئة الأسباب، التي رأى ضرورة تهيئتها لمثل تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر.. ولنستمع إلى السيدة عائشة رضي الله عنها ، تروي لنا التفاصيل.. قالت: (كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي ببيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، والخروج من مكة ، من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها.. قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك. فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.. قالت: فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم : الصحبة.. قالت فوالله ما شعرت قط مثل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أريقط – وكان مشركًا – يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.. ولم

يعلم -فيما بلغني- بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج، أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور (جبل بأسفل مكة) فدخلاه.. وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه، حين فقدوه، مائة ناقة، لمن يرده عليهم.. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى، فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه.. حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما).

فهل بعد هذا الحرص من حرص؟

.. هذا مع التذكير بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أغنى الناس عن مثل هذا السلوك بما أنه مؤيد من الله عز وجل ، وموعود بالنصر والتمكين.. وهذا ما يدعونا لأن نكون حريصين كحرصه صلى الله عليه وسلم على الأخذ بالأسباب، والسير في الأرض، لكشف السنن التي بتسخيرها يمكن أن نحقق الأهداف التي نسعى إليها.

***

(سنة الله في الخلق) تعريف وخصائص

لقد تناولنا فيما سبق مفهوم (سنن الله في الخلق) تناولا عاما مجملا، وبينا العلاقة ما بين دراسة هذه السنن وتسخير الكون المحيط بنا، وقلنا: إننا من غير فهم هذه السنن، ومعرفة شروطها، وأحكامها، لا نستطيع أن نسخرها على الوجه الصحيح.. وقد آن الأوان لكي نفصل الحديث في ماهية السنن، فما الذي نعنيه بمصطلح (سنة الله في الخلق) ؟

* بالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن لفظ (السنة) يعني الطريقة أو القاعدة.. وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعده فهو الذي سنه.

السنة في الاصطلاح الشرعي: (كل ما صدر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية، وهي مصدر تؤخذ عنه الشرائع والعقائد متى ثبت إسنادها وصحت نسبتها) .

* وأما (سنة الله في الخلق: فإنها تعني حكم الله في خليقته، وهذا ما بيناه في الفصول السابقة، من أن الله عز وجل قد سن لكل أمر في هذا الوجود حكما (أو قانونا) لا يحيد عنه.. فالسنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، هي إذن: (مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها) ، ويوضح هذا التعريف اختلاف معنى سنة الله في الخلق عن معنى السنة في اللغة، وفي الاصطلاح الشرعي كذلك.. على الرغم من المعنى الجامع لها. وتتصف السنن الربانية بثلاث خصائص مميزة هي: الشمولية، والثبات، والاطراد، وهذه الخصائص تنطبق على جميع السنن التي بثها الله في هذا الوجود.. فما هي طبيعة هذه الخصائص؟ هذا ما سوف نفصل فيه فيما يلي:

1- الشمولية

.. عندما يعيش الإنسان في هذا الوجود بقلب سليم، وعقل متفتح، وبصيرة نافذة، فإنه يجد في حياته على هذه الشاكلة سعادة غامرة، لا يعرف حلاوتها البشر، الذين عطلوا حواسهم عن رؤية ما في الكون من تكامل يدل على الإعجاز في الخلق، كما يدل على قدرة الخالق.

وإن من يتأمل هذه الخلائق المبثوثة في الكون من حوله، يجد أنها جميعا ترتبط بمنهج موحد من السنن الربانية، التي تقرب بعضها إلى بعض، فتجعل منها عالما أنيسا متكاملا، يسوده الانسجام والاستقرار والتوازن.. والأدلة على هذه الحقيقة الباهرة لا يكاد يحصرها عد..

دليل من علم الفيزياء:

.. فمن عالم الذرة المتناهية في الصغر، إلى عالم المجرة المتناهية في الكبر، نجد أن السنن التي تحكم هنا، هي نفسها التي تحكم هناك، فلا فرق ما بين صغير وكبير أمام السنن الربانية الشاملة، التي تحكم الكون كله..

وليس هذا الكلام خيالا، ولا شطحات فيما وراء المعقول، كما يحلو لبعض الناس أن يصفوا كل حقيقة كونية تثبت وجود خالق لهذا الوجود، فالعلم نفسه يصوغ الحقائق صياغة علمية دقيقة، بالمعادلات والأرقام التي لا يسع أي عاقل إلا الوقوف عندها خاشعا لله، لما تدل عليه من عظمة في الخلق وإتقان في الصنعة.. فمن المعلوم أن التفاعلات أو الظواهر التي تسود الكون أربع، هي: الكهربائية، والمغناطيسية، والنووية، والجاذبية.. وقد ظل العلماء زمنا طويلا يظنون أن هذه الظواهر متميزة بعضها عن بعض، وأنه لا علاقة بينها البتة.. وظل الأمر كذلك حتى عهد قريب، حين أثبتت النظريات الجديدة، والتجارب التي تمت بناء عليها، أن هذه الظواهر التي تبدو متباينة، يمكن توحيدها أو إرجاعها إلى ظاهرة واحدة، وقد بدأت مسيرة التوحيد هذه مع الإنجليزي إسحق نيوتن (1642 – 1727م) ، الذي وحد بين ظاهرتي الجاذبية الأرضية، والجاذبية بين الأجرام السماوية، وصاغ قانون الجاذبية العام، ثم تابعت عملية التوحيد مسيرتها مع الاسكوتلاندي جيمس ماكسويل (1831 – 1879م) الذي وحد بين ظاهرتي الكهرباء والمغناطيس، في ظاهرة واحدة، هي الحقل الكهرومغناطيسي ، وصاغ لها المعادلات الشهيرة التي مازالت تحمل اسمه.. وفي بداية القرن الحالي جرى تعميم نظرية ماكسويل في نظرية الإلكتروديناميك الكوانتية (1927م) ، ومؤخرا في سبعينيات هذا القرن نجح العلماء ومنهم الفيزيائي الباكستاني (عبد السلام) في التوحيد ما بين التفاعلات الكهرومغناطيسية، والتفاعلات النووية الضعيفة، في نظرية واحدة أطلق عليها اسم (كهروضعيفة) وعلى أثر اكتشاف هذه النظرية ازداد أمل العلماء في إمكانية جمع ظاهرة التفاعلات النووية القوية إلى الشكلين المذكورين اللذين تم توحيدهما، وأطلق اسم (نظرية التوحيد الكبير) على

النظرية المرشحة للقيام بذلك، ويفترض في هذه النظرية أن تعبر عن نوع من التناظر في البنية الهندسية للمادة في أعمق أعماقها.. وعندما يكون هذا التناظر قائما فهو يحتم وجود ظاهرة واحدة، أو حقل كهرنووي واحد، يجمع التفاعلات الثلاثة في تفاعل واحد..) ويبدو واضحا من خلال هذه الوقائع التي انتهى العلماء إليها حتى الآن أن العالم المادي يشكل معا وحدة متكاملة، ويخضع لمنهج واحد، وتحكمه سنن شاملة يكمل بعضها بعضا.

دليل من علم الأجنة: لقد كان دليلنا السابق من عالم المادة، التي نصفها عادة بالجمود.. ونختار الآن مثالا آخر من عالم الحياة، عالم المخلوقات الحية، التي تتصف بالنشاط، والحركة، والتكاثر، والنمو، والتبدل المستمر.

ونورد مثالنا من علم الأجنة، الذي أصبحنا نعرف عنه الكثير من المعلومات والحقائق اليقينية.. ويكفينا دليلا من علم الأجنة أن نتتبع مراحل تخلقها ونموها لنرى النظام الذي تسير وفقه، سواء أكانت هذه الأجنة أجنة بشر، أو أجنة حيوانات مثل السمك والضفدع والطير والفيل.

إن تكوين هذه الأجنة على اختلافها يبدأ من التقاء نطفة الذكر ببيضة الأنثى، ومن خلال عرس اللقاء هذا تتشكل خلية واحدة، هي العروس الملقحة التي لا تلبث أن تبدأ بالانقسام والتكاثر، على خليتين، ثم أربع، ثم ثمان، ثم ست عشرة.. وفي مرحلة لاحقة يبدأ تخصيص كل مجموعة من الخلايا المتكاثرة، لتشكيل عضو من أعضاء المخلوق الجديد إلى أن يكتمل نموه، ويبلغ غاية خلقه، ويخرج إلى الحياة مخلوقًا كاملًا سويًا.. ومما لا ريب فيه أن هذا الأسلوب الموحد في تخلق الأجنة المختلفة يوحي أنها جميعا تخضع لمنهج واحد من السنن الشاملة.. كما يدل هذا الأمر على أن سنن الحياة لا تسود عالم الإنسان وحده، بل تسود عالم المخلوقات الحية كلها.

دليل من علم الخلية: .. وإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى الخلية، فإننا نجد المخلوقات الحية كلها دون استثناء، تتكون من وحدات أساسية تدعى كل منها (خلية) وهذه الوحدات متشابهة في التركيب، سواء أكانت الخلية بشرية أو حيوانية أو نباتية.. فكل خلية تتركب من مادة صبغية وراثية تتجمع في النواة، وتحمل صفات المخلوق، وتنقلها بالتزاوج والتكاثر من جيل إلى جيل في النوع نفسه.

وتحيط بالنواة مادة هيولية تتم فيها النشاطات الحيوية المختلفة.. ويحيط بالمادة الهيولية هذه غلاف، أو غشاء يحدد الخلية، ويعطيها شكلها الذي يميزها عن غيرها من الخلايا.

وهذا الأسلوب في تكوين الخلايا يسود أنواع المخلوقات الحية كلها، حتى المجهرية منها كالطفيليات والجراثيم.. مما يدل دلالة واضحة على أن تكوين المخلوقات الحية ينتظم وفق سنن شاملة محكمة كذلك.

دليل من علم (الأحياء) : .. ولعلنا نتبين طرفا من التكامل في الخلق، حين ننظر نظرة شاملة إلى عالم المخلوقات الحية، التي تعيش فوق هذه الأرض، إذ تظهر لنا النظرة المدققة إلى حياة النبات من جهة، وحياة الإنسان والحيوان من جهة أخرى أن هذه المخلوقات جميعا تتعاون في حياتها ضمن حلقة واحدة متكاملة: فوظيفة النبات هي (الإرجاع والتركيب) ، إذ يأخذ التراب والهواء والماء فيركب منها الثمار، ليقدمها يافعة للإنسان والحيوان، لكي يبنيا منها أجسامهما.. إلى جانب ما يقوم به النبات من علم بالغ الأهمية في تنقية جو الأرض من غاز ثاني أكسيد الكربون ، الذي ينتج عن تنفس الإنسان والحيوان فينزع منه الأكسجين ويعيده إلى جو الأرض، خلال عملية التمثيل الضوئي ، لكي يقوم الإنسان والحيوان باستخدام هذه الأكسجين من جديد.

وأما وظيفة الإنسان والحيوان فهي (الأكسدة والتقويض) أي هي نقيض وظيفة النبات، إذ يأخذ الإنسان والحيوان غذاءهما من عالم النبات فيهضمانه ليبنيا منه خلاياهما وأعضاءهما، وليستمدا منه الطاقة اللازمة للحركة والنمو والتكاثر.. ثم يطرحان ما لا يهضمانه إلى التراب والهواء، ليبدأ دور النبات من جديد.

وبهذا تكتمل دورة الحياة، وتتعاون هذه المخلوقات معا ضمن حلقة متكاملة من السنن.

دلائل من علم النفس وعلم الاجتماع: .. وندرك من خلال الأمثلة التي سبقت أن العالم المادي (الحي وغير الحي) محكوم بمجموعة من السنن التي توجه مساره، وتحدد وجهة تطوره.. فماذا عن النفس البشرية والحياة الاجتماعية.. هل يخضعان كذلك لسنن مخصوصة؟

والجواب الذي نقطع به دون تردد هو: أجل.. فإن سنن الله عز وجل لا تحكم العالم المادي وحده، بل هي تحكم ما في هذا الوجود من خلائق، سواء أكانت مادية كالذرة، والكهرباء، والحرارة، أم كانت معنوية كالعواطف الإنسانية، والسلوك الاجتماعي.. وهذا ما تأكده آيات كثيرة من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران: 83) .. فالكل خاضع لله.. خاضع لسننه التي فطر الخلق عليها..

وكما أن الماء يطفئ النار..

وكما أن المعدن يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة..

وكما أن رمي الحجر في الفضاء يجعله يسقط إلى الأرض..

وكما أن التقاء النطفة بالبيضة يولد الجنين..

وهذه كلها سنن مادية مشاهدة مدركة.. فكذلك السنن التي تحكم النفس البشرية والحياة الاجتماعية، فهي سنن تقوم على مقدمات ونتائج، وترتبط نتائجها بمقدماتها ارتباطا وثيقا مقدرا من الله عز وجل .

ويقدم لنا الواقع المشاهد أدلة عديدة تثبت هذه الحقيقة.. فنحن نشاهد مثلا أن الحسد (وهو انفعال نفسي محض) يؤدي إلى نتائج مدركة تظهر بوضوح من خلال سلوك الحسود وتصرفاته، كما تظهر فيما يعانيه الحسود من ضيق وتبرم بالحياة، وقلق يقض مضجعه، وينغص عليه عيشته.

ويجمع علماء النفس من خلال ما حصلوه من معلومات وخبرات عن طبيعة النفس البشرية، بأن هذه النفس محكومة بسنن صارمة، تقرر حالها، من حيث الصحة والمرض، والسعادة والشقاء، كما يجمعون على أن الوضع النفسي للفرد يتوقف بصورة مؤكدة على عوامل عديدة، كالثقافة والظروف البيئية والاجتماعية والسياسية.. وعوامل أخرى بات كثير منها معروفا اليوم للباحثين في ميدان علم النفس، بحيث أصبح هؤلاء الباحثون قادرين على علاج كثير من الاضطرابات النفسية والسلوكية بناء على هذه المعرفة. ويثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة دون لبس، ويبين بوضوح تام، أن حال الإنسان من حيث السعادة والشقاء مثلا مرهونة بنظرته إلى الحياة، وبموقفه من هذه الحياة.. ففي سورة الشمس، يخبرنا الله عز وجل بأن صلاح

الإنسان مرهون بتزكيته نفسه، وأن شقاءه بالمقابل، مرهون بتدسية هذه النفس.. قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: 7-10) .

فهذه سنة نفسية تصدق على أي إنسان، فأيما إنسان صدق العزم، وأخلص النية، وزكا نفسه، فنأى بها عن المحرمات، وعن الخبائث، فإن الفلاح سيكون من نصيبه، وأيما إنسان دنس نفسه بالحرام، ورضي بالخبائث فإن الخسارة نازلة به لا محالة.

ولقد قدم لنا القرآن الكريم السنة التي تحكم سعادة الإنسان وشقاءه بصورة معادلة رياضية لا تقبل الجدل، وذلك في قوله سبحانه: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هدى فَمَنِ اتَّبَعَ هداي فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) (طه: 123-124) فالسعادة والشقاء - كما يقرر الحق تبارك وتعالى - رهن بالتزام شرع الله، أو النأي عنه ورفضه، وهذه سنة ربانية تحكم حياة البشر، وستظل تحكمها إلى يوم القيامة. ولو تتبعنا الآيات القرآنية، لوجدناها تعرض لنا الدليل تلو الدليل على أن النفس البشرية خاضعة لسنن صارمة، لا تقبل التبديل ولا التحويل.

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك من نطاق النفس البشرية، إلى نطاق المجتمع، فإننا سنجده أيضا محكوما بسنن ربانية صارمة شأنه شأن النفس.. ولا عجب في هذا فإن المجتمع في الحقيقة ليس إلا مجموعة من الأفراد.. وأن حال المجتمع يعكس سلوك هؤلاء الأفراد أنفسهم، ومن ثم فإن مصير المجتمع بأسره مرهون بسلوك أفراده.. نجد مصداق هذا في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: 11)، وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الأنفال: 53)، وقوله كذلك: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (الأنفال: 25) ، وفي هذا دليل على أن سلوك الناس، الذين يشكلون مجتمعا ما، يعد بمثابة مقدمة لنفاذ السنة المرتبطة بهذا السلوك.. وبمعنى آخر فإن انتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائيا. بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط وجهته.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن حياة مجتمعات مختلفة، منها من عاش حياة رغيدة آمنة، ومنها من ذاق لباس الخوف والجوع، ومنها من باد وهلك بعذاب أليم، وتأتي هذه اللمحات القرآنية لتلفت انتباهنا إلى

وجود سنن ربانية تحكم حياة المجتمعات البشرية قاطبة، وتقرر مصيرها.. وقد كان البيان القرآني واضحا، حين قرر أن رقي المجتمعات أو انحطاطها مرهونان بالتزام شريعة الله، أو النأي عنها، ففي باب الرقي وبسط النعمة، نجد قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: 96) .

وفي باب الانحطاط يخبرنا القرآن الكريم مثلا عما آلت إليه حال النصارى، عندما انحرفوا عن خط التوحيد، فكان جزاؤهم أن انتشرت بينهم نار العداوة والبغضاء: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (المائدة: 14) ، فلما انحرفوا عن خط التوحيد أشد من ذلك حقت عليهم سنة ربانية أخرى، وكان الهلاك مصيرهم: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) (الأنعام: 44) .

❋ وهذه كلها سنن ربانية ماضية في الناس إلى يوم القيامة.

وإلى جانب القرآن الكريم نجد عددا غير قليل من الأحاديث النبوية، التي بينت الكثير من السنن النفسية والاجتماعية.. ولنستمع مثلا لهذا الحديث النبوي الجامع الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم : (.. لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع، التي لم تكن في أسلافهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط عليهم عدو من غيرهم، فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم.)

فهذه كلها سنن اجتماعية لا تتخلف نتائجها عن أسبابها، فهي كالمعادلة الرياضية، التي ترتبط فيها النتيجة بالمقدمة ارتباطا محكما لا يقبل التبديل.

اعتراض: يبدي بعض الباحثين تحفظهم تجاه شمولية السنن؛ لأنهم يظنون أن المادة وحدها تخضع لسنن صارمة، يمكن أن تصاغ صياغة رياضية دقيقة، بينما لا تخضع النفس البشرية ولا الحياة الاجتماعية، لمثل هذه الصرامة، ويظنون فوق هذا أن التغيرات النفسية والاجتماعية تتم في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب وقد عمق هذا الظن ما حدث من فارق كبير بين تقدم العلوم الرياضية والمادية من جهة،

وبين تقدم العلوم الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى.. فقد قطعت العلوم المادية عموما شوطا بعيد المدى، وقدمت إنجازات علمية هائلة، وأثبتت جدارتها ومصداقيتها في معظم الأحوال.. وأما علوم النفس والاجتماع فما زالت عند البدايات الأولى؛ لأنها لم تعط الأهمية ذاتها، ولهذا ظل معظمها عاجزا عن تفسير سلوك الإنسان تفسيرا صحيحا دقيقا، وظلت هذه العلوم جاهلة بمعظم السنن، التي تتحكم بسلوك الفرد والمجتمع، مما جعل هذه العلوم متخلفة بمراحل واسعة عن علوم المادة، لكن هذا لا يعني أن النفس والمجتمع لا يخضعان للسنن كما تخضع المادة، بل معناه أن الإنسان نفسه مازال مقصرا في كشف سنن النفس والمجتمع..

والظاهر أن الالتباس في مسألة السنن النفسية والاجتماعية، وعدم اعتبارها صارمة كالسنن المادية الأخرى، يرجع إلى أن المادة يمكن أن تخضع للتجربة المباشرة في المختبر بسهولة ويسر، بحيث يمكن استنباط النتائج النهائية منها خلال زمن قصير، بينما يتعذر ذلك من التجارب النفسية والاجتماعية؛ لأن إخضاع النفس والمجتمع للتجربة ليس بالسهولة نفسه، كما أن التجربة النفسية والاجتماعية تتطلب فترة رصد طويلة، وربما استغرقت أجيالا عديدة . هذا إلى جانب ما قد تمر به الظاهرة الاجتماعية من صعوبات أو نكبات خلال مسيرتها الطويلة، مما يؤدي إلى انحرافها وتغيير معطياتها، ومن ثم يلتبس على من يدرسها أمر الصرامة في السنن التي تخضع لها.

وربما كان هذا هو السبب في تركيز الآيات الكريمة على دعوة المؤمنين للسير في الأرض، والنظر في تاريخ الأمم الغابرة لاستنباط الدروس والعبر (أو السنن) من خلاله، على أساس أن التاريخ يمثل تجارب اجتماعية ونفسية واقعية، عرفت بداياتها وتطوراتها ونهاياتها، كما عرفت سائر الملابسات التاريخية التي أحاطت بها.. ومن ذلك قوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (آل عمران: 137) وكثير من مثل هذه الآيات التي سيرد التفصيل فيها لاحقا بإذن الله.. ومما لا ريب فيه أن الاعتبار بقصص الأمم الغابرة يغدو بلا فائدة لو لم تكن السنن التي تحكم حياة الأفراد والمجتمعات سننا ثابتة مطردة، يمكن أن تتكرر كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها.

ملاحظة أخيرة: وتبقى ملاحظة هامة لا بد من الوقوف عندها، ونحن في معرض الحديث عن سنن النفس والمجتمع، وهي أن الحقيقة التي انتهينا إليها من (أن النفس والمجتمع يخضعان لسنن صارمة لا تختلف عن تلك السنن التي تخضع لها المادة) لا تعني أن النتائج التي انتهت إليها البحوث الاجتماعية والنفسية، التي بين أيدينا اليوم هي نتائج صحيحة مائة بالمائة، ولا أن القواعد الاجتماعية والنفسية التي توصل إليها بعض الباحثين صحيحة مائة بالمائة كذلك.

.. فما توصل إليه البشر من اكتشافات في هذا المجال أو ذاك قد يصيب أو يخطئ بمقدار ما يقترب من الحقيقة أو يبتعد عنها، وقد حدث مثل هذا مرارا، حتى بالنسبة للعلوم الرياضية، التي يحسب معظمنا أنه لا يأتيها الباطل أبدا.. فكم من نظرية رياضية ظلت محل قداسة وتقدير دهورا طويلة، ثم نقضت من أساسها، وظهر بطلانها.. وهكذا علم الاجتماع وعلم النفس، وغيرهما من العلوم الإنسانية، فهذه العلوم المختلفة تعد اكتشافات بشرية قد تصيب وقد تخطئ، وهذا الأمر يختلف عما نريد إثباته هنا، وهو أن النفس البشرية والمجتمع البشري كليهما يخضعان لسنن ربانية صارمة، كما تخضع المادة، سواء بسواء.

ويجمع الباحثون في العلوم الإنسانية، بما فيهم الباحثون الاجتماعيون والنفسيون، على أن علمي الاجتماع والنفس بوضعهما الحالي لا يعبران تعبيرا موثوقا عن طبيعة السنن النفسية والاجتماعية، أو بمعنى آخر فإن هذين العلمين ما يزالان قاصرين عن معرفة هذه السنن معرفة يقينية دقيقة.. ويمكن إرجاع أزمة هذين العلمين إلى عدة عوامل، نذكر منها:

(1) أن الاهتمام بالدراسات النفسية والاجتماعية – على مدار التاريخ – كان أقل بكثير من الاهتمام بالدراسات المادية الأخرى، مما جعل علم النفس وعلم الاجتماع متخلفين بمراحل عديدة عن العلوم المادية التي تطورت تطورًا مذهلًا، وبخاصة في العصر الحديث..

(2) أن الظواهر الاجتماعية والنفسية شديدة التعقيد، كما قدمنا. أن العامل البشري كثيرا ما يتدخل في تفسير الظاهرة الاجتماعية أو النفسية، فينأى بها عن الموضوعية.

(4) أن المنهج السائد اليوم في البحوث النفسية والاجتماعية يحتاج إلى إعادة نظر وتقويم؛ لأن معظم الباحثين مازالوا يؤسسون معتقداتهم على أساس من التجارب التي تجري على الحيوان، ثم يعممون هذه

النتائج على عالم البشر، وفي هذا خلط عجيب؛ لأنه يفترض أن السنن الخاصة بعالم الحيوان هي ذات السنن السائدة في عالم الإنسان بينما هما عالمان مختلفان اختلافا جذريا، فهما وإن اتفقا في بعض الصفات الحيوية من حيث الشكل، أو التركيب، أو الوظائف، إلا أنهما يختلفان من حيث التكوين النفسي والعقلي.. وهذا ما يجعل تعميم التجارب الحيوانية على الإنسان خطأ فاحشا، يؤدي بالضرورة إلى أحكام بعيدة غاية البعد عن الحقيقة.

ولا نريد أن نستطرد أكثر في تفنيد مشكلات علمي النفس والاجتماع، إلا أننا نريد التأكيد هنا على نقطة أساسية، وهي أننا إذا ما توصلنا يوما ما إلى معرفة سنة اجتماعية أو نفسية معرفة يقينية، فإننا سنجد أنها لا تختلف عن أية سنة مادية أخرى من حيث شمولها وصرامتها، وسوف نجد كذلك أننا نستطيع صياغة هذه السنة الاجتماعية، أو النفسية، صياغة رياضية، كما نصوغ أية معادلة رياضية صحيحة.

.. وهكذا يبدو لنا جليا أن كل ما في هذا الكون من جماد وحيوان ونبات يخضع لسنن ربانية محكمة.. وأنه لا شيء في هذا الوجود خارج عن سنة الله.. بل الكل خاضع له سبحانه.. وصدق الله العظيم الذي يبين هذه الحقيقة الباهرة في محكم تنزيله فيقول: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) (الرعد: 15) .

***

خصوصية السنن

هذا، ولكل سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه خصوصيتها المتفردة، ونعني بها أن السنة التي يتم بها أمر من الأمور هي واحدة لا تقبل التعدد، فكل سبب يولد النتيجة المقدرة له وحده، ولا تنفصل النتائج عن أسبابها، وكل مجموعة متفقة في حقيقتها من مجاميع الطبيعة يلزم أن تتفق كذلك في الأسباب والنتائج، أي يلزم أن يكون لها سنة مخصوصة تتحكم فيها، ومثال هذا ما ذكرناه من خضوع العناصر الكيميائية المختلفة للسنة، أو القانون، الذي اكتشفه العالم (دالتن) فهذا القانون هو الذي يحكم تفاعل العناصر الكيميائية بعضها مع بعض، إذ لا يتحد عنصر مع عنصر آخر إلاّ وفق نسبة محددة، وما لم يتوافر العنصران بالنسبة المطلوبة فإنهما لا يتحدان معا، ولا نحصل منهما على المركب الذي نريد.. وكذلك هو كل أمر في هذا الوجود، فكل أمر خاضع لسنة محددة لا يتم إلا بها، ولا يمكن أن يتم بغيرها من السنن.. فتركيب الماء بمواصفاته المعروفة، والذي رأينا في مثال سابق أنه يتم من اتحاد الهيدروجين والأكسجين، لا يمكن أبدا أن يتم من اتحاد الأكسجين بالهيليوم مثلا، مع العلم بأن الهيليوم هو أقرب العناصر الكيميائية إلى الهيدروجين من حيث البنية الذرية.

ويمكن أن نسوق أمثلة عديدة على أن سنة مخصوصة، لا تتم إلا من خلال شروط مخصوصة وعلى أن كل أمر في هذا الوجود يخضع لسنة مخصوصة كذلك.. وهذه الحقيقة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا كلما أردنا أن نحقق هدفا من الأهداف، أو القيام بعمل من الأعمال فإن الخطوة الأولى في سبيل ذلك، هي أن نتبين السنة الخاصة بهذا العمل أو ذاك الهدف؛ لأن القيام بأي عمل دون معرفة بالسنة التي يخضع لها، يعد ضربا من العبث، وإهدارا للطاقة.

ويمكن أن نشبه السنة بالخط المستقيم.. فمن المعروف أن الخط المستقيم هو أقصر خط يصل بين نقطتين ثابتتين، فلو كان لدينا مثلا النقطتان أ، ب فإننا لا يمكن أن نصل بينهما إلا بخط مستقيم واحد هو أ ب:

أ x ____________________ x ب

وأما بقية الخطوط التي تمر بها هاتين النقطتين، فإن كانت مستقيمة انطبقت على الخط الأول، وكانت مستقيمة مثله، أو كانت هي هو؛ لأنها جميعا تحقق صفة الاستقامة، وأما إن كانت الخطوط متعرجة فإنها تكون قد خرجت عن الاستقامة، ولم تعد تحقق الصفة المطلوبة.. وهكذا هي سنن الله في الخلق، فكل سنة تتعلق بسبب ونتيجة، كما يتعلق الخط المستقيم بالنقطتين (أ، ب) وكما أنه لا يوجد سوى خط مستقيم واحد يصل ما بين هاتين النقطتين، فكذلك لا توجد سوى سنة واحدة تتعلق بسبب مخصوص وبنتيجة مخصوصة. وهذه الحقيقة تقدم لنا منطلقا هاما جدا للنظر إلى مشكلاتنا، فمادام أن لكل أمر سنة مخصوصة لا يتم إلا من خلالها، فإن هذا يعني ضرورة الاجتهاد في إصابة السنة، التي تحكم كل قضية من القضايا، التي تعترضنا؛ لأن إصابة السنة هذه تحل لنا القضية من أساسها، وتغلق من ثم باب الاختلاف والنزاع.. وهذا ما سوف نفصل فيه – بإذن الله – عند الحديث عن علاقة السنن بالاجتهاد في الشريعة الإسلامية.

2- الثبات وثبات السنة يعني أنها لا تتبدل ولا تتحول، مصداقا لقوله تعالى: (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا) (فاطر 43) .

* والتبديل (لغة) : التغيير، قال تعالى: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً) (النحل: 151) ، وقال: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) (الأعراف 95) .

* وأما التحويل (لغة) فهو التحول من حال إلى حال، يقال: تحولت القوس، أي صارت معوجة بعد استقامة، ويقال، حوله: أي نقله من موضع إلى آخر.

فهذان الأمران (التبديل والتحويل) لا يطرأن أبدا على ما بث الله من سنن في هذا الوجود، فإن سنن الله باقية على حالها، منذ خلق الله السموات والأرض، وهي مستمرة على هذه الحال من الثبات إلى أن يشاء الله.. وفي هذا ما فيه من دلائل بالغة، توحي برحمة الله عز وجل بالعباد.. فلولا ثبات السنن على هذه الشاكلة لما أمكن للبشر أن يسخروها أو يستفيدوا منها، ولما كان استخلاف البشر في الأرض ممكنا، إذ كيف يمكن أن يستخلفوا في عالم هلامي لا يثبت على حال؟ وكيف يمكن أن يسخروا مثل هذا العالم الذي لا يحكمه قانون، ولا تضبطه سنة؟

ومن جهة ثانية.. لو لم تكن سنة الله ثابتة على هذه الحال، لما كان في هذا الوجود توازن ولا استقرار، ولكانت الفوضى حينئذ هي سمة الخلق كله.. وهذا ما يتنافى مع الواقع المشهود، الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار، كما قال تعالى في وصفه: (وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) (القمر:3) .

ولكن.. ما الذي نعنيه بثبات السنن؟ إننا حين نصف السنن بالثبات، فإننا نعني بذلك ارتباط الأسباب بالمسببات، أو ارتباط العلة بالمعلول، ارتباطا ضروريا لا ينفصم، إلا أن يشاء الله.. فقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه، أن يكون له في كل حادثة سبب يؤدي إليها، وأن يكون وراء كل معلول علة يرتبط بها.. وهذا ما يعطي السنن صفة الثبات..

ومما لا ريب فيه أن الكون لو لم يكن خاضعا لسنن ثابتة، لا تتبدل، ولا تتحول، ولو كانت الأحداث فيه تجري مصادفة بلا ضابط يضبطها كما يدعي الملحدون.

.. لما كان ثمة ضرورة إذن لوجود تماثل بين ذرات العنصر الكيميائي الواحد مثلا، ولما كان من الضروري أن تشترك جميع ذرات هذا العنصر بصفات معينة، تميزها عن غيرها من ذرات العناصر الأخرى، ولكانت ذرات العناصر المختلفة في تبدل مستمر، وعندئذ يكون من الجائز أن تحدث الظاهرة في بعض ذرات العنصر الكيميائي، ولا تحدث في غيرها من ذرات العنصر نفسه. لا لشيء إلا للمصادفة وهذا ما لا يقبله منطق العقل ولا تؤيده الوقائع الملموسة والمشاهدة، والتي تثبت كلها التقدير والتدبير في أمر الخلق كله، ونفي العبث عنه، وتوحي بالثبات في السنن، التي تحكم كل شيء فيه.. وهنا.. قد يتبادر إلى الذهن سؤال: هل ثبات السنن ماض إلى مالا نهاية؟ أم أن له أجلا معلوما؟

ونقول: إن الثبات في سنن الله ليس ثباتا أبديا لا نهاية له، بل هو ثبات موقوت، والظاهر من نصوص قرآنية عديدة أن نهايته تتزامن مع انتهاء مهمة الإنسان فوق هذه الأرض، فيوم تنتهي هذه المهمة، ينتهي أجل السنن، التي تسود اليوم عالمنا، ليبدأ عمل سنن أخرى قدرها الله للحياة الآخرة.. نجد مصداق هذا في قوله تعالى: (فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (إبراهيم: 47-48) فإن يوم القيامة – كما يخبرنا القرآن الكريم – يمثل نقطة تحول حاسمة، ليس في حياتنا نحن البشر فحسب، بل في حياة الكون كله.

اعتراض: وقد كنت في أحد الأيام أعرض فكرة ثبات السنن على واحد من أصحابي المتخصصين بالدراسات الجيولوجية فأبدى اعتراضه على صفة الثبات هذه، وقال: (.. لا أحسب أن السنن التي تتحكم بالكون ثابتة على هذه الصورة، وحين نتتبع مثلا تاريخ المخلوقات، التي تتابع ظهورها على وجه الأرض، فإننا نلاحظ حدوث تبدل في الخلق، مما يدل دون ريب على حدوث تبدل في السنن التي تحكم هذا الخلق.. فقد أثبتت المشاهدات والدراسات الجيولوجية الكثيرة، أنها سادت فوق الأرض – خلال حقبة تاريخية بعيدة – حيوانات بالغة الضخامة، كالديناصورات وأفيال الماموث وغيرها من الحيوانات الماردة، كما انتشرت في تلك الحقبة أنواع عملاقة من الشجر والنبات.. ثم انقرضت تلك المخلوقات، وظهرت من بعدها مخلوقات أخرى تختلف عنها اختلافا تاما، ومن هذه المخلوقات الجديدة.. الإنسان.. أفلا يدل هذا التبدل في الخلق على تبدل في سنن الحياة ؟) .

وقبل أن أجيب صاحبي، أردف يقول: (ومن جهة ثانية، فقد شهدنا في العصر الحاضر اختفاء بعض الأمراض، التي كانت سائدة في عالمنا، كما شهدنا ظهور أمراض أخرى جديدة، فقد اختفى داء الجدري مثلا من على وجه الأرض منذ سنوات، ولم تسجل منه أية حالة منذ شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1977م كما شهد هذا القرن ظهور داء جديد تماما، هو داء نقصان المناعة المكتسب، الذي اشتهر باسم (الإيدز) والذي سجلت الحالة الأولى منه عام 1981م .

.. أفلا يدل هذا على تبديل في السنن التي تتحكم بحياة المخلوقات ؟ فقلت لصاحبي: إن هذه الأمثلة التي أتيت بها ليس دليلا على التبدل في السنن، بل إنني لأرى فيها دليلا آخر يؤيد (الثبات في السنن) ولنأخذ المثال الأول الذي ذكرته عن اندثار المخلوقات العملاقة التي يقال: إنها سادت في الأرض قبل خلق الإنسان.. فأنت تعرف يا صديقي دون شك ما انتهى إليه العلماء حول اندثار تلك المخلوقات، إذ يرجحون أنها اندثرت لسبب عادي، أو قل سنة معروفة من سنن الحياة، وهي أن لكل جسم حي درجة حرارة معينة لا يستطيع العيش خارج نطاقها، وقد أظهرت الدراسات الجيولوجية أنه داهم تلك المخلوقات عصر جليدي بالغ القسوة، لم تستطع تلك المخلوقات أن تصمد أمامه، فقضت نحبها واندثرت عن بكرة أبيها.. ثم شاءت إرادة الله عز وجل ، أن ينحسر العصر الجليدي، وأن يسود الأرض عصر جديد يناسب حياة البشر، ومخلوقات أخرى قدر الله خلقها في ذلك الزمن..

ولم يصطبر صاحبي حتى أكمل حديثي، بل اعترض قائلا: (وهذه العصور التي تتعاقب بين وقت وآخر على سطح الأرض أليست ناشئة عن تغيير أو تبديل في السنن؟) .

فقلت: لا.. وإنما تتعاقب هذه العصور كما تتعاقب فصول الربيع والخريف والصيف والشتاء، بنظام ثابت، وتوقيت محدد، وفق سنن ربانية محكمة.

ثم تابعت أقول: وأما مثالك الآخر، الذي اخترته من عالم الطب، فهو كذلك لا يؤيد اعتراضك على ثبات السنن، فالجدري مثلا الذي اختفى منذ سنوات قريبة، لم يختف نتيجة تغيير في سنة المرض، بل اختفى لأسباب معروفة، أهمها تعميم استخدام اللقاح الواقي من الجدري على نطاق واسع في بلدان العالم قاطبة. قال صاحبي يعترض من جديد: ولكن اللقاح لم يعد مستعملا الآن، ومع هذا لم تعد تسجل أية حالات جديدة من المرض ؟

قلت: أجل، هذا صحيح فعلا، فقد أوقف العلماء استخدام اللقاح لأنهم أصبحوا واثقين من أن الجنس البشري قد اكتسب نوعا من المناعة المتأصلة، التي أصبحت تشكل إخلالا في سنة الإصابة بالجدري.. إذ تتطلب هذه السنة الخاصة بالعدوى بالأمراض المعدية، وجود عاملين رئيسيين، هما:

1 - العامل الممرض (وهو فيروس الجدري في المثال المذكور) .

2 - الجسم القابل للعدوى والمرض.

ويعتقد أن لقاح الجدري، جعل أجسام البشر غير قابلة للعدوى والمرض بجرثومة الجدري، أي حدث إخلال بالعامل الثاني، الذي يلزم لحدوث هذا المرض.. وهذا يعني أن سنة الإصابة بالمرض لم تتعطل أو تتبدل، بل حدثت هنالك موانع حالت دون فعل هذه السنة، وهذا - طبعا - بالنسبة للجدري فقط، وأما بقية الأمراض السارية، فلم يحدث فيها مثل هذا، ومازالت هذه الأمراض تصيب أعداد كبيرة من البشر كل يوم.. مما يعني أن داء الجدري قد يعود إلى الظهور مستقبلا، إذا ما زالت الموانع التي تحول دون ظهوره اليوم .

وكما هو الحال بالنسبة لداء الجدري، فكذلك الحال بالنسبة لداء (الإيدز) فهو يخضع أيضا لسنة الأمراض السارية التي أشرنا إليها.. وقد ظهر هذا الداء عندما تهيأت الظروف لظهوره.

وقاطعني صاحبي فقال: وما قولك في الحديث الشريف الذي جاء فيه (.. لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم) ؟

قلت: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا ينطق عن الهوى.. ولكن هذا الحديث يا صاحبي يمثل برهانا على ثبات السنن، فإن ظهور أوجاع جديدة بين الناس، لا يعني أنها تتطلب خلق سنن جديدة من أجلها، وإنما يكفي أن تتوفر الشروط اللازمة لحصولها، وهي كما قلنا آنفا:

وجود العامل الممرض، أي فيروس الإيدز بالنسبة للحالة التي تعرضها، وهذا الفيروس ربما يكون قد خلق قبل هذا الزمان بآماد بعيدة، أو أنه خلق حديثا بمشيئة الله، نتيجة تفاعل بعض السنن الكونية، فيما بينها، بسبب ظروف طارئة جديدة.

- والعامل الآخر استعداد الجسم البشري للإصابة بهذا المرض، وهذا الشرط يمكن أن يتوفر في أي زمان، إما لأن جسم الإنسان يمتلك أصلا مناعة ضد المرض الجديد، وإما لضعف يطرأ على الجسم فيجعله قابلا للعدوى بهذا المرض.. وقد اثبتت الدراسات الحديثة أن تعاطي المخدرات، وممارسة الشذوذ الجنسي، يضعفان مناعة الجسم ، ومما يؤيد هذه الحقيقة انتشار داء الإيدز خاصة في البلاد التي فشت فيها مثل هذه الفواحش.. وعلى هذه الشاكلة يمكن أن نفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهو لا يحتم حصول تغيير أو تبديل في السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه.

موقف الإنسان تجاه ثبات السنة:

.. وثبات السنة على صورة واحدة لا تتبدل، يشكل نوعا من العقبة أمامنا بقدر ما يمنحنا قدرة على التعامل معها والتحكم بمسارها، إذ كيف يمكننا أن نوجه السنة أو نسخرها لخدمتنا، ونحن لا نملك أن نغير شيئا من طبيعتها ؟ هنا يمكن أن نشبه السنة بالجدار المتين، الذي لا يمكن هدمه، ولا اختراقه، ولا زحزحته عن مكانه، فمثل هذا الجدار يمثل - دون ريب - نوعا من التحدي أمامنا.. غير أننا يمكن أن

نواجه هذه العقبة دون تغيير شيء من صفات الجدار.. فيمكننا مثلا أن نستخدمه للاستناد وإقامة جسر فوقه، أو نستخدمه كجزء من بناء غرفة، أو نستخدمه لدرء الريح والشمس.. وبهذا نستطيع التحكم بالجدار من غير تبديل في وضعه أو اتجاهه أو صفاته.. وكذلك هي سنن الله في الخلق، والله عز وجل وهبنا القدرة على تسخيرها في شئون حياتنا بهدايته لنا إلى كشف صفاتها، وإعطائنا القدرة على التصرف بها، من خلال هذه الصفات، وليس من خلال تغييرها.

ويمكن أن نقدم مثالا آخر يزيد الفكرة وضوحا.. فقد خلق الله عز وجل العناصر الكيميائية المختلفة، وجعل لكل منها صفات كيميائية وفيزيائية ثابتة لا تتغير، ومع هذا فقد استطاع الإنسان بفضل الله أن يحصل من هذه العناصر على صفات جديدة، من خلال التفاعلات التي تتم بين بعض العناصر وبعضها الآخر. وتعد سنة الله في الخلق بمثابة عناصر كيميائية، ذات صفات ثابتة لا تتغير، وكما نحصل من تفاعل العناصر الكيميائية على مركبات جديدة، وصفات جديدة، فكذلك التفاعل بين السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق، فإن هذا التفاعل يمدنا بقدرات تسخيرية جديدة، لم تكن متاحة لنا من قبل.. ونضرب لهذا مثلا من عالم الفضاء والأقمار الصناعية.. فمن المعلوم أن هناك سنتين مختلفتين تتحكمان في دوران الأقمار الصناعية حول الأرض:

(1) سنة الجاذبية الأرضية.

(2) وسنة القوة الطاردة المركزية.

فالقمر الصناعي إنما يستقر في مداره الثابت حول الأرض نتيجة تفاعل هاتين السنتين، فيما بينهما، فالجاذبية الأرضية تشد القمر الصناعي نحو مركز الأرض بقوة معينة، بينما تدفعه القوة الطاردة بعيدا عن مركز الأرض بقوة مساوية للأولى بالمقدار، ومعاكسة لها بالاتجاه، فتكون المحصلة استقرار القمر في مدار ثابت حول الأرض.

وعلى هذه الصورة من الفهم يجب أن يكون تعاملنا مع السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق، فليس لنا أن نفكر في تعديل صفاتها، أو تبديلها، وإنما علينا أن نعرف صفاتها، وأن نتصرف بها وفق هذه الصفات الثابتة، التي قدرها الله عز وجل كما شاء.

3- الاطراد والاطراد في (اللغة) : التتابع والتسلسل.

ونعني باطراد السنة تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها.. ونضرب مثلا لهذا تركيب الماء، فالماء يتركب من اندماج غازين مختلفين هما الأكسجين والهيدروجين وفق المعادلة الكيميائية التالية:

$$2H_2 + O_2 \xrightarrow[\text{« عوامل مساعدة »}]{\text{« شـــــروط »}} 2H_2O$$

وقد أصبح في مقدورنا اليوم أن نعيد تشكيل الماء من هذين الغازين بطرق اصطناعية، بعد أن عرفنا الشروط التي تتحكم باندماجهما، أهم هذه الشروط أن ندمج العنصرين بمقدارين متناسبين، وفق قاعدة النسب التي اكتشفها العالم الكيميائي (دالتن) والتي تقول: (إن الاتحاد الكيميائي بين العناصر يجري طبقا لنسب معينة من هذه العناصر، في ظروف وشروط خاصة بكل منها) فهذه القاعدة تعد سنة مطردة تخضع لها جميع التفاعلات الكيميائية التي تتم بين مختلف العناصر.. وكلما وفرنا شروط هذه السنة حصلنا على نتائج التفاعل المطلوب، حتى ولو أعدنا التفاعل مئات المرات.

وهذا ما نعنيه باطراد السنة، فجميع السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة - بإذن الله - كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع، التي تحول دون تحقيقها.. فالمطر يهطل بإذن الله كلما تبلدت الغيوم في السماء وتهيأت الظروف الجوية المواتية، والحجر يسقط إلى الأرض كلما ألقينا به في الفضاء، واليد تحترق كلما لامست النار، والمرض يحصل كلما صادفت الجراثيم جسما قابلا للعدوى والمرض.. وهكذا.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم أشارت إلى صفة الاطراد في سنن الله، منها قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: 1) (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (آل عمران: 120) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: 97) ، (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (النساء:

123) ، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مِنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ) (النور – 43) .

فهذه كلها سنن ربانية مطردة، لا تتخلف بإذن الله إلى يوم القيامة، وأمثالها كثير في القرآن الكريم.. وإن من يدقق النظر في أحكام الشرع المختلفة، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة، التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شيء مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دوما، في الدنيا قبل الآخرة، وإن الإتيان بشيء قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة في الدنيا قبل الآخرة، وفي هذا غاية العدل والحكمة والتدبير.

وقد ذكر العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله بهذا الصدد ما يلي: (.. لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة، والمعاني المعتبرة، في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها).

ومن هنا يتبين أن سسن الله في الخلق تقوم على الاطراد، بحيث تمضي السنة إلى غايتها المقدرة بإذن الله، كلما توافرت شروطها، ولم يكن ثمة ما يحول دون تحقيقها.. ويمكن تشبيه السنة من هذه الوجهة بطلقات البندقية فهي تنطلق من الفوهة كلما ضغطنا على الزناد، وكذلك هي سنن الله، فهي تمضي إلى غايتها كلما وفرنا شروطها.

وكما أننا نفقد السيطرة على الطلقة بمجرد خروجها من الفوهة، فكذلك نفقد السيطرة على نتائج السنة فور أن نوفر لها شروطها؛ لأنها ستمضي بعد ذلك لتحقيق أهدافها شئنا ذلك أم أبينا.

وقد يعترض بعضهم على صفة الاطراد في السنن، بحجة أن الصفات لا ترتبط بالموجودات ارتباطا لازما، بل ترتبط بها ارتباط (عادة) إذ يعتقد هؤلاء مثلا أنه ليس من طبيعة النار الإحراق، ولكن الله يجعل فيها هذه الصفة لحظة ملامستها وكذلك السكين ليس من طبيعتها القطع، وإنما يخلق الله فيها هذه الصفة حين إمرارها على الجلد مثلا

ويرى هؤلاء أن ارتباط الصفات بالموجودات إنما تتشكل في أذهاننا نتيجة العادة، فقد اعتدنا أن نرى النار تحرق، والسكين تقطع، فارتبطت في أذهاننا.. هذه الصفات بهذه الموجودات، ارتباط عادة.

والحقيقة أن هذه النظرة إلى طبيعة الأشياء قد نشأت نتيجة ملابسات تاريخية باتت معروفة في تاريخنا الإسلامي، فقد بدأ الحديث عن الجواهر والأعراض، وارتباط الأعراض بالجواهر منذ العصور الإسلامية الأولى ولا سيما في القرن الهجري الثاني، حين بدأ الجدال بين أهل الفلسفة وأهل العقيدة، ولعل أكثر من تكلموا في هذه القضية الأشاعرة والمعتزلة الذين حاولوا نفي فكرة (الطبع) ، التي كان يقول بها بعض الفلاسفة القدماء، فقد اعتقد أولئك المتكلمون أن التسليم بوجود الصفات في طبع الأشياء يعطل الإرادة الإلهية، ويجعل هذه الأشياء فاعلة بذاتها وليس بقدرة الله، وبما أنه لا يجري شيء في هذا الوجود إلا بمشيئة الله، فقد أصروا على أن الصفات ليست مرتبطة بالموجودات ارتباطا لازما، وأن الله يجعل فيها تلك الصفات ساعة يشاء، ليدللوا من ذلك على هيمنة المشيئة الإلهية على العالم، في كل حين ولا ريب في أن هذه النظرة إلى العالم تضفي عليه صورة سحرية غريبة؛ لأنها تجعل من الجائز للنار مثلا أن تحرق، أو لا تحرق، بنفس النسبة، وفي جميع الأحوال، وكأن الأمر عبث لا يضبطه ضابط وهذا ما يؤيده الواقع المحسوس، الذي يثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك صفة الاطراد في سنن الله التي تحكم الوجود.

وقد أخطأ أولئك المتكلمون، حين ظنوا بأن الاطراد في السنن ينفي المشيئة الإلهية أو يعطلها، وقد سبق أن بينا من قبل، بأن السنن التي تحكم هذا الوجود، ما هي إلا قدر من قدر الله عز وجل ، فهو سبحانه الذي قدره وأراد لها أن تعمل على هذه الصورة من الاطراد، لكي يستقر أمر الخلق، ويستطيع الإنسان تسخير ما في الكون في شئون حياته.

وملازمة الصفات للموجودات لا تعني تعطيل المشيئة الإلهية؛ لأن هذه الصفات ما كان لها أن تكون – أصلا – لولا مشيئة الله سبحانه، أضف إلى ذلك أن الله عز وجل ، الذي جعل في النار مثلا صفة الإحراق قادر على أن يسلبها هذه الصفة متى شاء، ودليل ذلك أنه سبحانه قال للنار: (كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (الأنبياء: 69) ، وهذا يعني أن صفة الإحراق كانت ملازمة للنار، قبل إلقاء إبراهيم عليه السلام فيها، وأن الله سلبها هذه الصفة في هذا الظرف الخاص، على وجه المعجزة لنبيه عليه السلام ، على أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن سلب الإرادة الإلهية للصفات، أو تعطيل سنة من السنن ليس أمرا اعتباطيا

متروكا للمصادفة أو الاحتمال، بل شاءت إرادة الله عز وجل أن يكون ذلك محكوما بظروف مخصوصة معلومة، كما هو الحال في المعجزات مثلا، مما يؤكد أن صفة الاطراد في السنن هي الأصل، وما عداها هو الاستثناء، وهذا ما سوف يفصل الحديث فيه بإذن الله عندما نتناول خوارق السنن. ونخلص من هذا العرض إلى أن السنن التي تحكم الوجود، تعمل فيه بنوع من الاطراد الذاتي (الأوتوماتيكي) فالنار من طبيعتها أن تحرق، والكهرباء من طبيعتها أن تصعق، والسم من طبيعته أن يقتل، وعلى هذا الأساس يجب أن نتعامل مع العالم من حولنا.. مع التذكير بأن هذا الاطراد خاضع في الوقت ذاته لمشيئة الله كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) (الفرقان: 45) ، فإن مد الظل كناية عن اطراد حركة الشمس والأرض، ولو شاء الله لعطل هذا الاطراد، وجعل الشمس والأرض ساكنتين، وفي هذا دليل على الهيمنة الإلهية المطلقة الدائمة.. فالله عز وجل ، لم يخلق الكون ويتركه وشأنه، بل هو قائم على أمر خلقه في كل حين، يسطر على كل ذرة من ذرات الكون، وقادر أن يفعل بخلقه ما يشاء (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة: 1) ، (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (هود: 107) .

وقد أصبحنا اليوم أقرب إلى فهم هذا النظام الرباني المطرد، بعد أن أتاحت لنا العلوم الحديثة، ما يعرف بالنظم ذاتية التسيير (الأوتوماتيكية) إذ نستطيع مثلا أن نشغل جهاز التلفزيون بواسطة جهاز التحكم عن بعد (ريموت كنترول) فيظل التليفزيون يعمل من تلقاء ذاته دونما حاجة لتدخلنا المستمر من أجل حثه على العمل، وهذا لا يعني أننا فقدنا السيطرة على عمل التليفزيون، فنحن قادرون متى شئنا أن نوقفه عن العمل، أو نوجهه إلى محطة جديدة..

فإذا كنا قد سلمنا بأن الإنسان – صاحب القدرة المحدودة المقيدة – استطاع إنشاء نظم ذاتية الحركة، وتخضع في الوقت نفسه للسيطرة، فكيف لا نسلم بأن الله عز وجل خلق هذا الكون وفق نوع من الاطراد الذاتي الخاضع للسيطرة الربانية؟

***

كشف سنن الله في الخلق

.. لقد خلق الله هذا الكون البديع، وبث فيه من المخلوقات أنواعا كثيرة لا تعد ولا تحصى، حتى إننا لو أردنا إحصاء المعلومات، التي حصلها البشر حتى يومنا هذا عن تلك المخلوقات، لكان من العسير على أية موسوعة أن تتسع لمجرد فهرسة هذه المعلومات، هذا على الرغم من أن ما حصله البشر من علم، لا يعد شيئا مذكورا بالنسبة للحقائق، التي يزخر الكون بها.. وصدق الله العظيم الذي يبين طرفا من هذه الحقيقة المعجزة بقوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا) (الاسراء: 85) . ومن هنا يمكن أن ندرك مقدار التنوع في السنن، التي تحكم مخلوقات الله، وندرك كذلك السبب في عدم انكشاف كثير من هذه السنن.. ويمكن أن نبسط هذه المسألة على الوجه التالي:

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض، لأجل أداء مهمة محددة، بينتها الآية الكريمة: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56) .. والعبادة هنا لا تعني فقط الشعائر التعبدية، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها، مما يسمى بالعبادات في كتب الفقه الإسلامي، بل تعني الانقياد والانصياع التامين للمنهج، الذي شرعه الله عز وجل للناس، ولكي يستطيع الإنسان القيام بهذه الأمانة، فقد زوده الله عز وجل بالكفايات والاستعدادات اللازمة لكشف بعض السنن، التي تعينه على أداء هذه الأمانة، وتفتح أمامه الطريق لفهم هذا العالم، وفك رموزه، والتعامل معه. وأما بقية السنن المقدرة لهذا الوجود، فقد نتوصل إلى معرفة أسرار بعضها، بينما تخفى علينا أسرار بعضها الآخر.. وإن الواقع ليشهد بأننا نرى كثيرا من مخلوقات الله عز وجل ، ونرى كثيرا من الظواهر، فلا ندرك الحكمة من خلقها، ولا ندرك السنن التي تحكمها، وكثيرا ما تساءلنا بيننا وبين أنفسنا: لماذا خلق الله هذه الخلائق؟ دون أن نهتدي إلى جواب.. لكن هذا لا يعني أن تلك الخلائق قد خلقت عبثا.. (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا بَاطِلا سُبْحَانَكَ) (آل عمران: 191) بل كل شيء عند الله بمقدار (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: 49) ولكل أمر أراده حكمة، سواء أدركناها أم لم ندركها، وسواء علمنا السنة التي يخضع لها هذا الأمر أم لم نعلمها.

ويرجع خفاء بعض السنن عنا إلى تقصير في البحث عن هذه السنن، وقد يرجع أحيانا أخرى إلى القصور في الوسائل المتاحة بين أيدينا، ومن ذلك مثلا الإشعاع الذري.. فهذا الإشعاع الذي أوجده الله عز وجل منذ ملايين السنين، لم نتمكن من اكتشافه إلا بعد تطوير الأجهزة الحساسة لهذا الإشعاع، الذي يصدر عن العناصر الكيميائية المشعة.. وبعد دراسة هذه الظاهرة عرفنا بوجود سنة تحكم عملية الإشعاع الذري.. وعندما تعمقنا بدراسة هذه السنة استطعنا – بفضل الله – أن نسخر الإشعاع الذري في أغراض شتى، كعلاج الأورام السرطانية، وتوليد الطاقة الكهربائية، وصنع القنابل الذرية..

الحاجة أم الاكتشاف .. ومن الملاحظات البارزة عبر التاريخ، أن الأمم تمر بمراحل متغيرة، فتتطور أحوالها.. وتطرأ عليها ظروف مستجدة، تضطرها للبحث عن وسائل جديدة، تعينها على القيام بعمارة الأرض، وأداء أمانة الاستخلاف..

وتحت ضغط هذه الظروف القاهرة، ينشط الإنسان في الدراسة والبحث والتنقيب، إلى أن تتكلل مساعيه بالنجاح، وتنكشف له سنن جديدة تكون بمثابة حلول مرحلية للمشكلات التي واجهته..

ومن أجل هذا نجد كثيرا من آيات القرآن الكريم تحثنا على السير في الأرض، بقصد الكشف عن السنن المغيبة عنا، والعمل على تسخيرها فيما يصلح لشئون حياتنا.. وهذا هو الأصل في قضية استخلاف الإنسان من قبل الله عز وجل ، والتي عرضها القرآن الكريم وفق محاور ثلاثة:

الأول: خلق الإنسان: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: 30) .

الثاني: تسخير الكون للإنسان: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية: 13) .

الثالث: دعوة الإنسان للنظر والتدبر والبحث: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (يونس: 101) .

وعلى هذه الشاكلة يجب أن نفهم القضية.. فالله عز وجل هو خالق البشر، وهو مستخلفهم في هذه الأرض، ومسخر لهم كل شيء في هذا الوجود، وقد أمرهم سبحانه أن يسيروا في الأرض، فينظروا كيف

تمضي مسيرة الحياة وفق سنن ثابتة، غير عصية على الإدراك البشري، وغير متمنعة عن التسخير من قبل البشر، متى عرفوها وفهموا طبيعتها.

قهر الطبيعة

.. ومن ثم فإن اكتشاف الإنسان لسنة من سنن الله، وتسخيرها، ليس قهرا للطبيعة، كما يحلو للملحدين أن يصوروا هذه القضية، إذ هم يظنون أن حياة الإنسان فوق هذه الأرض صراع متواصل، ومعركة لا تنتهي ضد عناصر الطبيعة.. وما ذلك إلا لإنكارهم وجود خالق لهذا الكون، وزعمهم بأن الطبيعة هي التي خلقت نفسها بنفسها، وأنها هي التي أوجدت الإنسان مصادفة، وألقت به في خضم هذا الصراع المحموم وهذا هو موقف المدنية المعاصرة اليوم (بشطريها الغربي والشرقي) إذ هي تصور تحقيق إرادة الإنسان في صورة الانتصار على الطبيعة، وكأن الطبيعة عدو أو حاجز يحول بين الإنسان وبين تحقيق إرادته

في حين أن النظرة الإسلامية للقضية مختلفة تماما، فالمسلم يحس بالانتماء للطبيعة، بسبب إيمانه بأن قوانينها قدر من قدر الله عز وجل ، وسنة من سننه، التي سخرها لخدمة الإنسان، تفضلا منه وكرما.. ولهذا نجد العلاقة ما بين الإنسان المسلم، وبين الطبيعة، مطبوعة بطابع السلام والمحبة والانتماء، على النقيض من علاقة غير المسلم بالطبيعة والتي تتصف بصفة التحدي والقوة والتحايل.

وما تعبير (قهر الطبيعة) الذي يلوكه الملحدون بمناسبة وبغير مناسبة إلا تلاعب بالألفاظ، وتسمية للحقائق بغير أسمائها (إِنْ هي إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) (النجم: 23) .

والحق.. أن الله سبحانه خلق في الإنسان بموجب استعداده علما ضروريا بحقائق الأشياء، وسنن الله التي تحكمها، وما لها من قوانين النفع والضر، والواقع يؤيد هذا الرأي، فقد ورث الجنس البشري، على مدى العصور، هذا الاستعداد الفطري عن أبيهم آدم، الذي أودع الله في نفسه علم الأشياء، من غير تحديد ولا تعيين (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة: 31) ، وقد ظلوا بهذا الاستعداد يكشفون من أسرار هذا الأرض وقوانين طبيعتها، ما مكن لهم من السيطرة عليها، وتحقيق قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..) (البقرة: 30) فلا عجب إذن أن تنكشف سنة من سنن الله على يدي الإنسان، ما دام الله عز

وجل هو الذي قدر لها أن تنكشف على هذه الصورة، ولا عجب كذلك أن يتم هذا الكشف على يدي مؤمن أو كافر؛ لأنها سواء بالنسبة لقدر الله، الذي يجريه على يدي من يشاء من خلقه، ونلمح ظلال هذا المعنى في قوله تعالى: (كُلا نُمِدُّ هؤلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءِ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (الإسراء: 20) .

.. والكون – كما قدمنا – زاخر بالخلائق، وهذه الخلائق تحكمها سنن لا تعد ولا تحصى، وما يزال معظم هذه السنن في ذمة الغيب، وستبقى كذلك، حتى يحين الوقت، الذي قدره الله لانكشافها، وكأن الإنسان في هذه الحال أمام كنز لا ينضب، ينهل منه ما يشاء، ولكن بشرط أن يبذل الجهد اللازم لاستخراج جواهر هذا الكنز.. علما بأن حجب بعض السنن عن الإنسان لم يكن عبثا، بل كان لحكمة بالغة، أرادها الله عز وجل ، فإن هذا الحجب يشكل نوعا من التحريض، الذي يدفع الإنسان دوما للبحث والتنقيب والمحاولة، مما يضفي على حياته مسحة من التغيير المستمر، الذي يجمل الحياة في ناظريه، ويدخل إلى نفسه البهجة والسعادة، كلما استطاع بجهده الواعي أن يكتشف جديدا، أو يتغلب على صعوبة من الصعوبات التي تعترض سبيله..

يقول الدكتور عماد الدين خليل حول هذه النقطة: (إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الانكليزي (آرنولد توبيني) ومقاييسه الحضارية فإننا سنرى في العالم تحديا مناسبا للإنسان، ليس معجزا ولا هو دون الحد المطلوب البشري لإثارة التوتر للرد.. وكأن إرادة الله سبحانه شاءت أن تقف به عند هذا الحد لكي يحقق خلافته في الأرض، فلم يشأ الله أن يمهد العالم تمهيدا كاملا، ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره كلها؛ لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف، والتحضر والإبداع، التي تتطلب مقاومة وتحديا واستجابة ودأبا وإبداعا؛ ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة، ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض أساسا، كما أن الله سبحانه لم يشأ – من جهة أخرى – أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية، والانغلاق والغموض، بحيث يعجز الإنسان عن الاستجابة والإبداع، الأمر الذي ينافي أيضا مهمته الحضارية التي نيطت به لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود).

فالقضية إذن ليست قهرا للطبيعة.. فالله عز وجل خلق هذا الكون، واستخلفنا فيه، ومنحنا القدرة على تسخيره.. ولكنه سبحانه جعل شرطا للوصول إلى تسخير الكون من قبلنا نحن البشر، وهو أن نعرف

ابتداء السنن التي يخضع لها، ثم نعمل على توفير الوسائل المناسبة، التي تعيننا على تسخير هذه السنن، التي من طبيعتها أنها لا تعاند الإنسان، ولا ترفض الاستجابة له؛ ولأن الله عز وجل هو الذي أمرها بهذا، وقدر لها هذه المهمة.

***

عقبات في طريق كشف السنن

.. وعلى الرغم من أن الله عز وجل قد سخر لنا السنن الكونية، وجعلها طوع أمرنا (وفق الشروط التي ألمحنا إليها آنفا) إلا أن هناك عقبات، كثيرا ما تحول بيننا وبين الوصول إلى كشف السنن أو فهمها.. وقد سبق أن بينا بعض هذه العقبات التي تتعلق بطبيعة السنن نفسها، أو بالوسائل اللازمة لكشف هذه السنن.. غير أن العقبات التي نريد مناقشتها هنا، تختلف عن تلك بأنها عقبات ذاتية تنبع من نظرتنا إلى الكون، وموقفنا مما يجري فيه من أحداث.. ويأتي في مقدمة هذه العقبات.. ما يلي:

1- النظرة الغائية:

ونعني بها نظرتنا إلى ظواهر الحياة من جهة الغاية أو الحكمة، التي من أجلها تحدث هذه الظواهر.. فنحن مثلا نعتقد أن البراكين والزلازل تضرب القرى والمدن، وتهلك الناس عقوبة من الله عز وجل على ما ارتكبوا من آثام وجرائم، وكذلك نعتقد بالمرض وبسائر الكوارث الطبيعية.. ومع تسليمنا بأن لهذا الاعتقاد ما يبرره انطلاقا من إيماننا بأن لله حكمة في كل ما يجري في هذا الكون والتي قد ندركها وقد لا ندركها.. إلا أن اعتقادنا بالحكمة الإلهية على هذه الصورة يجب ألا يحول بيننا وبين النظر إلى المسألة من جانب آخر، وهو معرفة الأسباب التي تؤدي عادة لحدوث هذه الظواهر؛ لأن معرفة الأسباب تفيدنا في التحكم بالظواهر الكونية المختلفة، وتجعلنا أكثر قدرة على تسخيرها لصالحنا، ودرء أخطارها عنا بإذن الله. أضف إلى ذلك أن النظر إلى الأحداث من جهة الحكمة في وقوعها فحسب، يضعنا في موقع السلبية المطلقة التي تكتفي بتأمل الأحداث من الخارج، بدل المشاركة فيها مشاركة إيجابية فعالة.. علما بأن مثل هذه المواقف السلبية كثيرة في حياتنا العملية.

هكذا تحطم شالنجر:

وأذكر أنني في كانون الثاني (يناير) من عام 1986م كنت في الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما دعاني صديق يتابع هناك دراسته الجامعية العليا لنشاهد على الطبيعة عملية إطلاق المكوك الفضائي (شالنجر)

الذي كان من المقرر أن يحمل سبعة رواد للدوران حول الأرض، وفي الموعد المحدد كنا في قاعدة الإطلاق مع جموع المشاهدين، نترقب لحظة انطلاق الصاروخ نحو الفضاء.. وقد لفت انتباهي أن صديقي لم يكف طوال فترة ترقبنا لانطلاق الصاروح عن إبداء دهشته وإعجابه بما وصلت إليه (تكنولوجيا) الغرب من تقدم وتطور مذهلين، وأعاد على مسامعي أكثر من مرة قوله: (إننا – نحن المسلمين – لن نستطيع مسايرة التقدم العلمي المعاصر، ولن نستطيع مواكبة ركب الحضارة، ما لم نأخذ بمنهج هؤلاء، ونتابع خطواتهم في شتى مجالات الحياة) ، لكن موقف صاحب المليء بالإعجاب والدهشة، لم يلبث أن تبدل باتجاه معاكس تماما عندما انفجر الصاروخ، بعد ثوان من إطلاقه.. فقد عد صاحبي انفجار الصاروخ بمثابة ضربة إلهية قاصمة موجهة لغطرسة أمريكا (على حد تعبيره) التي لا تفتأ تعتدي على الشعوب المستضعفة، كما رأى في تلك الكارثة عقوبة عاجلة على ما وصل إليه المجتمع الأمريكي من استهتار وانحلال أخلاقي، وإباحية وفوضى في كل شيء..

لقد كان واضحا من هذا التبدل المفاجيء في موقف صاحبي أنه لم يكن يصدر في تقويمه للحادث عن نظرة موضوعية بمقدار ما كان يصدر عن نظرة غائية قاصرة تستهدف (التبرير) أكثر مما تستهدف معرفة الأسباب الموضوعية، التي أدت إلى الانفجار، والتي يمكن بمعرفتها منع تكرار الكارثة مرة أخرى

ومن المؤكد لو أن العلماء والمسئولين في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) نظروا للحدث كما نظر إليه صاحبي لأوقفوا تماما برامجهم الفضائية، بانتظار أن تتراجع الولايات المتحدة عن غطرستها، وانتظار أن يصلح حال المجتمع الأمريكي، (ترى كم من السنوات أو القرون سيستغرق ذلك ؟) . لكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل سرعان ما عكف العلماء والمسئولين في وكالة الفضاء على دراسة وتحديد الظروف والأسباب التي أدت إلى وقوع الكارثة.. وما هي إلا شهور قليلة حتى قامت الوكالة من كبوتها، ودبت الحياة من جديد في قاعدة (كيب كينيدي) وانطلق المكوك التالي إلى الفضاء وفق البرنامج المقرر

إن النظر إلى الأحداث على هذه الشاكلة لا يعني إغفال جانب الحكمة فيها، بل يعني فهما جديدا للحكمة، يقوم على معرفة الأسباب الكامنة وراء الأحداث، أو معرفة السنن التي تحكم الأحداث.. لأننا بهذه المعرفة نصبح أقدر على توجيه الأحداث، بما يتوافق وأمانة الاستخلاف، التي نيطت بنا.

2 – موقفنا من (النصوص) :

.. وأما العقبة الثانية التي قد تحول بيننا، وبين التعرف إلى سنن الله في الخلق، فهي موقفنا من تفسير النصوص الشرعية غير السليم (من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة) فنحن غالبا ما نقف عند حدود تفسير هذه النصوص دون محاولة تجاوز هذا الموقف إلى معرفة السنن التي تعين على تفسير النصوص.. ومما لا جدال فيه أن مثل هذا الموقف ليس في صالح النص، وليس في صالح العقل أيضا؛ لأنه – من جهة – يجمد النص عند فهم واحد لا يتعداه على مر العصور، واختلاف الأحوال.. وهو – من جهة أخرى – يحد من ملكات العقل؛ لأنه يجعل فهم النص محصورا بعصر وجيل من السلطة القاهرة وهذا يثبط العقل، ويحجب عنه رؤية الآفاق الفسيحة المتعددة، التي يعبر النص عنها، ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم يلح كثيرا في دعوتنا للسير في الأرض، والتفكير في ملكوت الله (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (يونس: 101) ، وتأتي هذه الدعوة من القرآن تعبيرا عن احترامه للعقل، وتأكيدا على ضرورة شحذ الفكر، لاستكشاف أسرار الوجود، ومعرفة طبيعة الأحداث، التي تجري فيه على حقيقتها التي هي عليها فعلا، لا كما نتصورها أو نتوهمها، أو نفهمها من خلال ما يتبادر لنا من النص..

وجدير بنا أن نتذكر هنا موقف الكنسية في أوروبا إبان العصور الوسطى تجاه علماء الطبيعة، فقد رفضت الكنسية آنذاك كل ما جاء به العلماء من نظريات، واكتشافات جديدة، واتهمتهم بالتجديف، وقامت بإحراق بعضهم وهم أحياء، وهددت آخرين بالقتل، إن لم يتراجعوا عما أسمته الكنسية هرطقة وتجديفا ضد الكتاب المقدس، وهكذا عكست الكنسية القضية، وقلبتها رأسا على عقب، إذ جعلت فهمها للنصوص التي وردت في الكتاب المقدس، هو الضابط الذي على نهجه يجب أن يسير العلم، وكان الأحرى بها أن تجعل العلم هاديا لها في فهم نصوص الكتاب وقد يعترض على هذا المثال الذي سقناه من تاريخ الكنيسة في أوروبا بأن النصوص التي اعتمدتها الكنيسة لم تكن نصوصا صحيحة، بل كانت نصوصا محرفة أو مدسوسة، وهذا ما يجعل القضية مختلفة عن قضيتنا – نحن المسلمين – لأن النصوص التي بين أيدينا صحيحة قطعية الثبوت، لم يصبها تحريف، ولم يتسلل إليها دس..

فنقول: هذا صحيح، فالقضية عندنا مختلفة عما كانت عند الكنيسة، إذ تتركز المشكلة عندنا في (تفسير) النصوص نفسها، أو بمعنى آخر في (موقفنا من هذه النصوص) وأضرب على ذلك مثلا المسألة السابقة

نفسها، وأعني بها.. كروية الأرض ودوران الشمس.. فقد اقتصر بعض مفسرينا على فهم النصوص في الحكم على هذه المسألة دون محاولة ربط النصوص بواقع الحال، ودون الالتفات إلى ما يقول به علم الطبيعة والفلك، فانتهوا من ذلك إلى أن الأرض منبسطة لا كروية، وأنها ثابتة، والشمس تدور من حولها.. وقد تذرع هؤلاء المفسرون بنصوص عديدة من مثل قوله تعالى: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (الحجر: 19) ، وقوله تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (يس: 38) .. ومن العجيب أن بعض من يدعون العلم ما يزالون إلى يومنا هذا مصرين على ظنهم الخاطئ بأن الأرض ليست كروية، وأنها ثابتة، والأرض والشمس تجري من حولها ولقد يقال: إن هذه المسألة قد حسمت نهائيا بالنسبة لعلمائنا المعاصرين خاصة الذين لم يعودوا يرون أي تعارض ما بين النصوص الصحيحة الصريحة وبين ثوابت العلم الحديث.. فنقول: هذا صحيح بالنسبة للمسألة التي ذكرناها ولكثير من المسائل المشابهة، إلا أن هناك الكثير من المسائل التي لم تحسم بعد، والتي لم يزل بعض علمائنا يقفون منها موقفا معارضا بحجة أن النصوص تعارض هذه المسائل.

ويلاحظ أن معظم الذين يتصدون من بيننا لنقد النظريات العلمية ليسوا من أهل الاختصاص، مع أن من الأمور المسلم بها أن كل قضية لا يصح أن يتصدى لها إلاّ من يملك علما راسخا في هذا الحقل، أضف إلى ذلك أنه لا يصح بحال من الأحوال تجاهل الشواهد المادية التي قدمها العلماء بحجة أن الفهم الحرفي للنصوص عندنا يعارض هذه الشواهد، وبخاصة أن هذه النصوص لا تقطع برد النظرية.

إن قضية الإعجاز العلمي في القرآن وفي السنة النبوية، والتي حازت قبولا حسنا في الأيام الأخيرة عند المسلمين، وعند غيرهم، من ذوي العقول الراجحة، خير شاهد على ما نقول؛ لأنها أصبحت تقدم النصوص للناس وفق فهم جديد يعتمد ربط النصوص بأحدث ما توصل إليه العلم من مكتشفات.

وهذا ما يجعلنا اليوم ننظر إلى النصوص نظرة متجددة في ضوء ما استجد في عصرنا الحاضر من متغيرات، وما تم فيه من اكتشافات.

لعلنا بمثل هذه النظرة نستطيع الغوص إلى جوهر النص، واكتشاف المزيد والمزيد من السنن المتعلقة به.

3 – تسييس العلم:

.. ومن العوامل الهامة، التي وقفت على مدار التاريخ حجر عثرة في طريق التقدم العلمي، وكشف سنن الله في الخلق – فيما نظن – أن الإنجازات العلمية ظلت ترتبط بالأهداف السياسية (والعسكرية منها على وجه الخصوص) ، أكثر من ارتباطها بأية أهداف أخرى، مما جعل مسيرة العلم تنحرف عن مسارها الصحيح، لتركز على أنواع معينة من الكشوف والاختراعات، وتغفل من ثم الجوانب الأهم والأكثر فائدة للبشرية.. فقد وجدنا مثلا أن أعظم الكشوف العلمية، تنمو وتترعرع في ظل السياسات العسكرية، فالحرب العالمية الثانية – على سبيل المثال – كانت من أهم الأسباب التي دفعت البشرية لدخول (عصر الذرة) ، وكان الدافع الأساسي لتفجير الذرة خوف الحلفاء من امتداد السيطرة النازية على العالم، مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس الراحل (روزفلت) تجند كبار علمائها، إلى جانب عدد من العلماء الألمان، الذين فروا إليها من بطن الطاغية (هتلر) ، ليعملوا على مدار الساعة في المشروع السري، الذي عرف آنذاك باسم (مشروع مانهاتن) وقد استطاع العلماء في فترة وجيزة جدا من الزمن، أن يحولوا معادلات الطاقة والمادة التي وضعها (آينشتاين) إلى حقيقة واقعة، واستطاعوا إجراء اول تجربة ذرية في التاريخ عام 1945م، في صحراء نيفادا، ولم يلبثوا أن حولوا هذا الكشف العلمي الكبير إلى قنبلة رهيبة، ألقيت فوق مدينة (هيروشيما اليابانية، في الثامن من آب (أغسطس) من العام نفسه، وبعدها بأيام قليلة ألقيت القنبلة الثانية فوق مدينة (ناغازاكي) ، وبقية المأساة معروفة للجميع دون ريب.

وكما كانت الحرب العالمية الثانية وراء التعرف على الطاقة الذرية، كذلك كان التهديد بنشوب حرب عالمية ثالثة وراء التقدم العلمي في ميدان الفضاء.. فقد أصيب أرباب الحرب والسياسة بحمى التفوق العسكري، فراحوا يتسابقون في ميدان الفضاء، رغبة منهم في امتلاك السلاح الأسرع والأبعد مدى، إلى أن توجوا ذلك بالمشروع الأمريكي الشهير الذي عرف باسم (حرب النجوم) ، والذي استهدف فيما استهدف زرع الفضاء الخارجي حول الأرض برءوس نووية، قادرة على ضرب أية بقعة من الأرض في دقائق معدودات.

وقد كان من نتيجة حمى التسابق الفضائي، أن تطورت الصواريخ والأقمار الصناعية، والمركبات الفضائية، تطورا مذهلا، فاق كل التصورات والتوقعات، حتى أصبح الإنسان اليوم قادرا على الوصول

إلى إية بقعة يريدها، ليس على سطح الأرض أو القمر، بل على سطح أي كوكب من كواكب منظومتنا الشمسية.

إن التقدم العلمي المذهل في مثل هذه الميادين، ليكشف لنا عن حقيقة مفجعة حقا، وهي أن الإنسان يملك من الطاقات العقلية والمادية، ما يستطيع به أن يحقق ما يبدو مستحيلا، غير أنه (ولغاية في أنفس بعضهم) لا يستخدم هذه الطاقات فيما يخدم حياته، بل يستخدمها بالاتجاه المضاد.

ومما لا ريب فيه أن علاج مشكلة صحية نفسية كالاكتئاب النفسي مثلا الذي يدفع آلاف المرضى النفسيين للانتحار سنويا، ليس أصعب، ولا أعقد من إنزال إنسان فوق القمر، أو إرسال مركبة فضائية إلى أطراف منظومتنا الشمسية. وهذا يعني إن الإنسان – لو أراد – لحقق الكثير من التقدم في ميادين العلم، التي لم تعط حتى الآن حقها من العناية والاهتمام، ومنها على سبيل المثال ميدانا علم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرهما من الميادين، التي تتعلق مباشرة بحياة الإنسان.. لكن التقدم العلمي – للأسف الشديد – سار في اتجاه آخر، أدى إلى دخول البشرية جمعاء منعطفا خطيرا، بات يهددها بالفناء

ونعتقد أن تصحيح هذا المسار لن يتم إلا باتخاذ العلماء أنفسهم موقفا حاسما، يحددون على أساسه أولويات الكشوف، التي تحتاجها البشرية فعلا، أما المواقف السلبية، التي غالبا ما يقفها العلماء، حتى بالنسبة للاكتشافات التي تتحقق على أيديهم، وتستنزف طاقاتهم وعقولهم، فإنها ليست في صالح التقدم العلمي، ولا في صالح البشرية؛ لأنها تتيح الفرصة أمام التجار والساسة (أو الساسة التجار) لاستغلال الكشوف العلمية في أحط الأغراض، وأبعدها عن الأخلاق النبيلة

وهذا مما يعوق التقدم العلمي، ويحول دون كشف السنن المتعلقة بجوانب هامة جدا من حياة الإنسان.

***

خوارق سنة الله في الخلق

.. تحدثنا في الفصول السابقة عن خصائص السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق، وبينا أن هذه السنن تتصف بثلاث خصائص رئيسة هي الشمولية، والثبات، والاطراد، وأكدنا أن هذه الخصائص تجعل من السنن قوانين صارمة لا تتبدل ولا تتحول، ولا قدرة للإنسان على أن يبدلها ويحولها أبدا..

فهل يعني هذا أن السنن مازالت على حالها، منذ أن خلق الله الخلق، وقدر السنن؟ أم أن السنن تبدلت في وقت ما؟ أو عطلت في مكان ما؟ وهل كل السنن ثابتة أم بعضها الثابت فقط ؟ وما علاقة الخوارق التي شهدتها البشرية في بعض الأزمان بالسنن؟ هذه الأسئلة وغيرها، سنحاول الإجابة عنها في هذا الفصل، الذي نتحدث فيه عن بعض الظروف الاستثنائية، التي يحصل فيها خرق للسنن، وخروج عن مألوف البشر..

ولكن قبل أن نستعرض هذه الاستثناءات من قانون السنة، نود أن ننبه إلى أن هذه الاستثناءات قد تكون حقيقية، أي أن تقوم على تبدل حقيقي في سنة كونية ما، لحكمة يريدها الله عز وجل ، وقد يكون الاستثناء غير حقيقي، أي أن نتوهم نحن البشر حدوث تبدل في السنة دون أن يكون لذلك حقيقة.

ومن الحقائق الأولية التي لا بد من التذكير بها قبل مناقشة هذا الموضوع، أن خالق السنن ومقدرها هو الله عز وجل ، فهو سبحانه الذي قدر أسبابها، وهو الذي يقدر نتائجها.. وما صفة الثبات في السنن، وارتباط نتائجها بأسبابها إلا بقدر من الله عز وجل .. ومن ثم فليس في استطاعة أحد من الخلق أن يخرق سنة من السنن، أو يبدل فيها، فهذا لا يكون إلا بمشيئة الله وحده، متى شاء، وكيف شاء.. وقد شاءت حكمته سبحانه أن يخرق بعض السنن، في بعض الظروف الخاصة، ليدلل بهذا على طلاقة قدرته من كل قيد، وليدلل كذلك على أنه خالق هذه السنن، وأنه وحده المسيطر عليها، إن شاء خرقها، أو بدلها، أو عطلها..

وأذكر أن أول ما لفت انتباهي شخصيا لمسألة الخوارق ما شاهدته في بيت أحد أصدقائي، فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يرزق هذا الصديق بثلاثة أولاد أسوياء الخلقة، فقد حباهم الله بجمال ونضارة قل مثيلها بين البشر، ثم شاءت حكمته سبحانه أن تلد زوجة الصديق طفلة لم تكن على هيئة البشر، بل كانت مسخا أقرب في شكلها وتكوينها إلى هيئة بعض الحيوان.. فخيل إلي وقتذاك أن ولادة الطفلة على تلك الهيئة يمثل خرقا للسنن، التي تتحكم في خلق وتصوير الجنين البشري.. غير أنني – بعد دراستي لعلم الجنين ومعرفتي بالتشوهات، والتي قد تطرأ على الأجنة أثناء تخلقها – عرفت أن المسخ لا يمثل خرقا للسنن التي تحكم نمو الأجنة، وإنما هو يحدث من تأثير عوامل خارجية تعيق عملية الخلق والنمو.. وقد أصبح الكثير من هذه العوامل معروفا اليوم للأطباء وعلماء الأجنة.

الذين أصبحوا قادرين – بإذن الله – على درء كثير من التشوهات الجنينية نتيجة لهذه المعرفة.

والواقع.. أن معظم ما نشاهده في حياتنا من خوارق هو من قبيل هذه الحادثة التي ذكرناها.. أي أن معظم الخوارق التي نراها لا تشكل خرقا حقيقيا للسنن، وإنما هي تحدث نتيجة أسباب قد تخفى علينا، وقد نعلمها.. ونستعرض فيما يلي أشهر الخوارق التي عرفها البشر لنبين علاقتها بالسنن التي فطر الله عليها أمور خلقه.

1 – المعجزة .. والمعجزة (أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله) وكما هي الحال في الإرهاص، فإن المعجزات مرتبطة بزمن الأنبياء كذلك.. وتقوم الحجة في المعجزة على أساس من ثبات السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق، فلو لم تكن السنن ثابتة، لما كان في الخروج عنها إعجاز ولا حجة، وإنما كانت الحجة في المعجزة؛ لأنها تأتي بما لم يألفه البشر، وما لا يمكن الإتيان بمثله، إلا من قبل نبي مرسل، مؤيد من الله عز وجل ، الذي خلق السنة أصلا وأوجدها.

وقد كانت المعجزات كثيرة في حياة الأنبياء عليهم السلام، ولا تكاد تخلو سيرة نبي من ذكر المعجزات، التي أجراها الله على يديه، ونذكر من ذلك، عصا سيدنا موسى عليه السلام ، التي انقلبت حية، وابتلعت حبال سحرة فرعون وعصيهم..

ومن المعجزات كذلك إنزال مائدة من السماء على قوم سيدنا عيسى عليه السلام ، وإبراؤه للأكمه والأبرص والأعمى، وإحياؤه الموتى.. كل ذلك بإذن الله.

ومن المعجزات التي جرت على يدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إنطاقه للشجر، وتكليمه ذراع الشاة المسمومة، وتفجر الماء من بين أصابعه.. وغيرها كثير مما جاء في كتب الحديث والسيرة.

ولا شك أن معجزته الخالدة الباقية على الزمن هي القرآن الكريم.

2 – الإرهاص .. ومن الحوادث الخارقة التي ذكرتها كتب السيرة (الإرهاص) ، وهو حدوث أمر خارق للعادة، يدل على بعثة نبي قبل بعثته.. ومن الإرهاصات التي سبقت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، تلك البركات التي ظهرت لمرضعته حليمة السعدية ، بعد أن ذهبت إلى قريش لتسترضع ولدا، فلم تجد غيره صلى الله عليه وسلم .

ومن الإرهاصات التي سبقت بعثته صلى الله عليه وسلم أيضا حادثة شق صدره الشريف ، وفيها (إن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي، أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى غنما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا، ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فنقياه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه.).

والإرهاصات في حياة الأنبياء عليهم السلام معروفة وكثيرة.

3 – الكرامة .. والكرامة كالمعجزة من حيث إنها أمر خارق للعادة، خارج عن مألوف البشر، إلا أنها غير مقترنة بدعوى النبوة، وغير مرتبطة بزمن النبوات، فهي خوارق يجريها الله عز وجل على أيدي بعض عباده وأوليائه الصالحين تكريما لهم، وبشارة على تقواهم وصلاحهم.. ونذكر من الكرامات التي حكاها القرآن الكريم، أمر السيدة مريم عليها السلام التي نذرتها أمها لخدمة بيت المقدس (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى

لَكِ هذا قَالَتْ هو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران: 37) والكرامة هنا هي ما خص الله عز وجل به السيدة مريم عليها السلام، بأن كان يرسل إليها الرزق الوافر، وهي في خلوتها، حتى أن سيدنا زكريا عليه السلام كان يستغرب وجود ذلك الرزق عندها، وهو يعلم أنه لا أحد يدخل عليها غيره.

وقد أورد الإمام النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) أحاديث عديدة عن الكرامات في (باب كرامات الأولياء الصالحين وفضلهم) ختمه بقوله: (وفي الباب أحاديث كثيرة صحيحة سبقت في مواضعها من هذا الكتاب، منها حديث الغلام، الذي يأتي الساحر والراهب، ومنها حديث جريج، وحديث أصحاب الغار، الذين أطبقت عليهم الصخرة، وحديث الرجل الذي سمع صوتا في السحاب يقول: اسق حديقة فلان، وغير ذلك، والدلائل في الباب كثيرة مشهورة) .

وهذه كلها دلائل على أن الله عز وجل قد يخرق السنة كرامة لأوليائه، وهذا الخرق غير مرتبط بزمان ولا مكان، وغير مرتبط كذلك بإرادة العبد الصالح نفسه، وإنما هو مرتبط أولا وأخيرا بإرادة الله ومشيئته وحكمته.

4 – السحر والسحر (لغة) : هو كل أمر يخفي سببه، ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع.. وقد فصل بعض أهل العلم في أنواع السحر فذكروا منها: التمائم، والشعوذة، وتسخير الجن، واستخدام الأدوية والأبخرة، وغير ذلك من الأساليب، التي يلجأ إليها السحرة عادة.. ولا نريد أن ندخل في تفصيلات هذه الأساليب، نظرا لطبيعة بحثنا هذا من جهة، ونظرا لاختلاف العلماء حول حقيقة هذه الأساليب، وتأثيرها من جهة أخرى.. لكن الذي نريد أن نناقشه الآن هو تلك الحوادث من خداع البصر الذي يبدو خارقا للعادة التي تجري على أيدي بعض السحرة، سواء منهم من يفعلون ذلك بقصد الإمتاع في الحفلات وغيرها، أو الذين يفعلون ذلك لأغراض أخرى كالوقيعة بين الناس.. والظاهر من نصوص القرآن الكريم أن فعل السحرة لا يعدو أن يكون خداع بصر، ولنستمع إلى وصف الحق تبارك وتعالى لما جاء به سحرة فرعون، وهم أمهر السحرة على مر التاريخ: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (طه: 65 – 66) وقوله تعالى: (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) (الأعراف: 116)

فلم يكن سحر السحرة إذن غير تخييل (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ..) ولم يكن غير خداع لأبصار المشاهدين (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ..) .

والفرق كبير ما بين التخييل والوهم والخداع، وبين الحقيقة، وهذا ما أثبتته بقية القصة حين ألقى موسى عليه السلام عصاه (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأعراف: 117 – 118) . فإن ما جاء به موسى عليه السلام كان معجزة من الله عز وجل .. كان حقيقة لا وهما.. كان خرقا حقيقيا للسنن، فقد انقلبت العصا الجامدة إلى حية تدب على الأرض، وتتحرك وتبتلع السحرة وعصيهم ولما كان سحرة فرعون يعلمون طبيعة السحر، فإنهم لم يتمالكوا وهم يرون المعجزة إلا أن يخروا سجدا لله، ويعلنوا إيمانهم بما جاء به موسى؛ لأنهم – وهم أهل الصنعة – قد أيقنوا أن ما جاء به لا يمكن لبشر أن يأتي به، إلا أن يكون مؤيدا من الله، الذي خلق الخلائق وقدر السنن.. فهو وحده سبحانه القادر على خرقها، وأما السحرة فإن دأبهم التمويه والخداع.

ونلاحظ من خلال عرض هذه الخوارق الخارجة عن مألوف البشر أنها ليست خوارق مطلقة، فهي غير قابلة للحدوث في كل زمان ومكان، بل هي مقيدة بظروف..

فالمعجزات والإرهاصات مرتبطة بعصر النبوات، وما دام عصر النبوات قد اختتم ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا معجزات ولا إرهاص إذن بعد ذلك.

وأما السحر فإن أغلبه من باب التخييل والخداع، وهو لا يعبر عن خرق للسنة كما بينا آنفا.. وإن أحوال الذين يمارسون السحر لتدل على طبيعة أفعالهم، فالسحر لا يصنعه إلا الفساق والكفار، وأما المؤمنون فهم أبعد الناس عن فعل السحر، وبخاصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذر منه، وعده من الكبائر.

و تبقى (الكرامة) هي الخارقة الوحيدة، التي قد يداخلها بعض الالتباس، إذ قد يلجأ بعض أصحاب النفوس الضعيفة، والنوايا الخبيثة، لادعاء ظهور بعض الكرامات على أيديهم، بقصد الوصول إلى مكاسب معينة، أو تحقيق مآرب شخصية دنيئة، وهذا ما حصل في العصور الإسلامية المتأخرة في صفوف غلاة الطرق الصوفية، وأصحاب الدعوات الباطنية الباطلة، وكثيرا ما نشاهد هؤلاء يعقدون الجلسات الخاصة، ليعرضوا مهاراتهم في الإتيان بخوارق مختلفة، يدعون أنها كرامات من الله عز وجل .

والحقيقة أن العبد الصالح الذي يخصه الله عز وجل بكرامة من عنده، يغلب عليه أن يداري هذه الكرامات عن غيره من الناس، مخافة أن يحبط الله عمله، فهو أشد حياء بالكرامة من البنت في خدرها، كما يقولون، بينما نجد أدعياء الكرامات يفاخرون بها، ويذيعون أخبارها للقريب والبعيد لكي يحققوا من وراء ذلك أغراضهم.. ويحتم علينا هذا البيان أننا كلما رأينا خارقة من الخوارق أو سمعنا خبرا من أخبارها أن نعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله، فإن وافقهما قبلناها منه، وعددناها كرامة، وإن وجدناه غير ذلك لم نقبل منه، وعددناها نوعا من السحر أو الاستدراج..

ونخلص من حديثنا عن الخوارق إلى أنها تعد استثناء لا قاعدة؛ لأن القاعدة في سنن الله في الخلق هي الثبات، وأما هذه الخوارق فهي استثناءات.. ولهذا ينبغي أن نضعها في موضعها الصحيح من حركة الكون، لا أن نجعلها الأصل في تعاملنا مع الكون من حولنا.. ونحن مستخلفون في الأرض بناءً على هذا الأصل، وأعني به ثبات السنن على الهيئة التي قدرها الله عز وجل ، يوم أن خلق السماوات والأرض، كما أننا محاسبون على تصرفاتنا بالعالم المحيط بنا، بناء على هذا الأصل كذلك..

ويجب أن نؤمن يقينا أننا لا يمكن أن نستفيد من ذخائر هذا العالم أو نسخرها في شئوننا إلا من خلال معرفتنا الدقيقة بالسنن، التي تحكمها، وأما التطلع إلى الخوارق، والتعامل مع الأحداث من خلالها فلا يجدي فتيلا؛ لأنها كما قدمنا ليست هي القاعدة في بناء هذا العالم، وليست هي التي تحكم مسيرة الحضارة والبناء، وإنما يحكم ذلك الجهد الواعي، والبحث الدؤوب، الذي يهدف إلى كشف سنن الله في الخلق، والعمل على تسخيرها فيما يستهدف خير البشرية وصلاحها.

***

الفصل الثاني: (مفاهيم في ضوء سنة الله في الخلق)

1- الحرية

2- العلم

3- علم الغيب

4- الخير والشر

5- الدعاء

6- الابتلاء والمحنة

7- العبادة

8- الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية

- هل تخضع مشكلاتنا للسنن ؟

- مشروع عمل

- التغيير الاجتماعى

- الفكرة

- الانسان

- الزمن

- الدعوة الأنموذج

عرفنا في الفصول السابقة، ما نقصده من مفهوم (سنة الله في الخلق) وقلنا: إن هذا المفهوم يعني: مجموعة من القوانين التي سنها الله عز وجل وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها.. وعرضنا بعد ذلك شواهد عديدة، دلت كلها على أن كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود تخضع لسنن ربانية، لا تتبدل ولا تتحول، ثم بينا أن تسخير العالم المحيط بنا غير ممكن، بغير الفهم الصحيح لطبيعة السنن الربانية؛ لأن هذا الفهم يعد بمثابة (كلمة السر) التي تفتح لنا مغاليق هذا الكون، وتتيح لنا فرصة الاستفادة من كنوزه، التي لا تعد ولا تحصى، وتسخيرها فيما يصلح شئون حياتنا، وييسر لنا أمر عمارة الأرض.

ولكن.. هل ثمرة (التسخير) هي الثمرة الوحيدة، التي يمكن أن نجنيها من فهمنا لطبيعة السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه؟ لا.. بل هناك ثمرات أخرى كثيرة يمكن أن نجنيها من فهمنا للسنن، ويأتي في مقدمة هذه الثمرات ثمرة.. الإيمان.. لأننا حين نطلع على طبيعة السنن، التي تحكم الكون، وما فيه من مخلوقات كثيرة، فإننا سندرك أن هذا الكون ما كان له أن يقوم على هذه الصورة البديعة من التناسق والتوازن والاستقرار، لو لم يكن خالقه.. ربا واحدا، حكيما، عالما، محيطا بكل شيء، وقادرا على كل شيء (سبحانه) .

ويلحق ثمرة الإيمان ثمرات أخرى كثيرة، من أبرزها تصويب نظرتنا إلى كثير من المفاهيم، التي لها مساس مباشر وعميق بسلوكنا وحركتنا في الحياة.. وهذا ما سوف نعرض له في هذا الفصل.

***

1- الحرية

عندما نسمع كلمة (الحرية) نتذكر على الفور " قولة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ " .

وقد نتذكر كذلك (الثورات) التي قادها أصحابها باسم (الحرية) ..

وقد نتذكر السجون ودهاليز التعذيب الجهنمية الرهيبة.

وقد نتذكر أعواد المشانق التي أقيمت وما تزال تقام بين الحين والحين هنا وهناك بهدف (تأديب) المنادين بالحرية..

وقد نتذكر.. ونتذكر..

قد نتذكر ذلك كله مادام الحديث يدور عن (الحرية) ..

ومن العجيب أن ينحصر جل تفكيرنا بالمعنى السياسي للكلمة، مع أن للحرية معاني كثيرة أوسع وأشمل من مجرد فهم سياسي محدود.. فما الذي يجعل تفكيرنا يتوجه نحو السياسة وحدها دون سواها؟

إنه – دون ريب – ضغط الواقع الذي يعيشه الإنسان اليوم، في كثير من بلدان العالم، حيث حرية الرأي، وحرية الحياة، وحرية التعليم، وحرية التملك.. وكل الحريات الأخرى مهددة بالإعدام في لحظة واحدة نتيجة قرار سياسي أحمق.

غير أن هذا الواقع الأليم – على فداحته – لا يصح أن يحجب عن الرؤية الموضوعية للمسألة، ولا أن يمنعنا من الفهم الصحيح للحرية، التي ننادي جميعا بها.. لأننا من غير تلك الرؤية، وهذا الفهم، لن نستطيع أن نتجاوز أزمتنا الحضارية الراهنة، بل قد نزيد هذه الأزمة تعقيدا، وقد ينتهي بنا الأمر إلى خسارة أخرى من حريتنا، التي يفترض ألا نقبل بها إلا كاملة، غير منقوصة.

فما هي الحرية يا ترى؟

ربما كانت الحرية من أكثر المصطلحات التصاقا بحياة الإنسان وبمصيره، وربما كان هذا هو السبب، الذي من أجله يتعرض مفهوم الحرية للكثير من عمليات التشويه والتلبيس والتلاعب.. وقد ظلت الحرية على مدار التاريخ عرضة لعمليات (تحجيم) ماكرة يراد منها أن تخدم مصالح بعض أصحاب القرار، الذين لا يؤمنون أصلا بالحرية إلا بمقدار ما تمنحهم هذه الحرية من (سلطات) تضاف إلى رصيدهم من التسلط والطغيان والجبروت.

ويقودنا البحث عن معنى الحرية أول ما يقودنا إلى رحاب القرآن الكريم الذي يخبرنا بأن الله عز وجل – الذي خلق السموات والأرض – لم يترك هذا الخلق ليعيش على هواه، ويتصرف بلا ضابط ولا نظام (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) (الدخان: 28) ، بل أخضع الله ذلك كله لمجموعة من السنن لتحكم مسيرة هذا الخلق (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان: 2) . وتوحي آيات كثيرة بأن هذه السنن تعد بمثابة حواجز تحد من حرية الإنسان في هذا العالم، وتقيد حركته، نلمح هذا مثلا في قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا) (الرحمن:33) فالنفاذ لا يكون إلا لوجود مانع أو حاجز، لكن إرادة الله سبحانه شاءت ألا تكون هذه الحواجز مطلقة بحيث لا يستطيع الإنسان الفكاك من أسرها، بل جعل الله عز وجل هذه السنن قابلة للتسخير من قبل الإنسان، لكي يتمكن من القيام بأمانة التكليف، وهذا معنى قوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ) (الجاثية: 13) ، لكنه سبحانه جعل شروطا لا بد للإنسان أن يوفرها حتى يتمكن من تسخير السنن الربانية، ومن تلك الشروط أن يعرف طبيعة السنن، التي تحكم الأشياء التي يريد تسخيرها، وأن يهيئ الظروف المواتية لهذا التسخير.. نلمح هذا المعنى في قوله تعالى تعقيبا على تحدي الجن والإنس أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض في ختام الآية السابقة من سورة الرحمن (لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن: 33)

ويرجح أن السلطان هنا هو معرفة السنن الربانية التي تعين الإنسان على الطيران وتجاوز أقطار السموات والأرض .

.. والملاحظ أن الإنسان عندما استطاع أن ينفذ من أقطار السموات والأرض اكتسب هامشا جديدا من الحرية، إذ تحرر من قيد الجاذبية، وتحرر من قيد السرعة، التي منحت له فطرة، وهي سرعة مشيه على قدميه، فأصبح قادرا على الحركة بسرعات مذهلة تتجاوز عشرات الآلاف من الأميال في الساعة الواحدة.

ويمكن أن نزيد هذه الفكرة توضيحا بمثال آخر.. فلو أننا أتينا بإنسان لا يعلم شيئا عما وصلت إليه الاختراعات والتقنية الحديثة من تقدم، ثم عرضنا عليه سيارة.. فما يكون موقفه منها يا ترى؟ إنه – دون ريب – سيقف حيالها حائرا مستغربا مندهشا، وربما فر منها خائفا مذعورا فهي بالنسبة له عالم مجهول تماما، ينطوي على كل ما ينطوي عليه المجهول من خوف ومفاجآت.

ولو أننا طلبنا من هذا الإنسان، أن يتصرف بالسيارة على مقدار ما لديه من علم فطري، فربما اكتفى باستخدامها مأوى لدجاجاته.. وهذا غاية ما قد يقوده إليه تفكيره من استخدام هذه الآلة العظيمة.. أي أنه لن يستطيع أن يستفيد من الحرية الواسعة، التي يمكن أن توفرها السيارة له، وما ذلك إلا لجهله بالقوانين التي تحكم عملها.. بينما نجد أن إنسانا آخر لديه علم بتلك القوانين، سيتصرف بالسيارة بصورة مختلفة تماما، فهو يعرف كيف يشغلها، وكيف يحركها، وكيف يجعلها تحمل متاعه، وتجري به بسرعة كافية، تعينه على توفير الوقت، وتقريب المسافات.. فهذا الإنسان اكتسب بعلمه بالسنن، التي تحكم عمل السيارة هامشا إضافيا من حرية الحركة في هذا العالم، كما اكتسب قوة جديدة أضيفت إلى قوته الجسدية، فأصبح قادرا على بلوغ أماكن، وتحقيق أهداف، لم يكن ليبلغها أو يحققها بقوته الجسدية وحدها.

الحرية والعلم بالسنن

وعلى هذه الشاكلة من المعرفة بالسنن يكتسب الإنسان المزيد من الحرية في هذا العالم.. ونستشف من خلال استعراض الخلق في القرآن الكريم أن الإنسان أول ما أوجده الله فوق هذه الأرض أصيب بخيبة أمل كبيرة، فبعد أن كان يعيش في الجنة سيدا، ينعم بحرية مطلقة.. أهبط إلى الأرض ليجد نفسه فجأة في عالم يتنكر له، عالم مختلف تماما عن عالم الجنة؛ لأن كل ما فيه عصي على الأمر المباشر.. كان آدم في الجنة يأمر فيطاع.. أما هنا في عالم الأرض فإن الأمر وحده لم يعد يكفي للوصول إلى الهدف، بل لا بد من جهد، وعلم بالقوانين، أو السنن، التي تحكم هذا العالم.. وهكذا وجد آدم نفسه فجأة مقيدا داخل حدود السنن..

ووجد نفسه بسبب جهله بسنن العالم الجديد خاضعا لسيطرة المخلوقات الأخرى، والتي كانت أكثر منه عددا، وأشد قوة فاحتار:

- ماذا يصنع؟

- أيستسلم؟

- أيقف مكتوف اليدين أمام هذا الواقع الجديد، الذي اختاره بنفسه طائعا؟

- أم يتحرك ليسترد حريته من جديد؟

ولم تطل به الحيرة، فاختار – بما وهبه الله من عقل – أن يتحرك، وراح يواجه العالم المحيط به، بكل ما آتاه الله من عزم وتوق إلى الحرية، فأخذ يفك طلاسم الوجود، ويكشف من أسراره ما شاء الله له أن يكشف، فاهتدى إلى معرفة الكثير من السنن، التي على نهجها تسير الحياة، وبهذه المعرفة السننية، تمكن من تسخير العالم المحيط به، وتحرر من السيطرة التي كانت مفروضة عليه، وشيئا فشيئا راحت تتوسع دائرة حريته، حتى تمكن في النهاية من قلب الموازين، وتغيير المعادلات، فأمسى العالم الذي كان يفرض عليه سيطرته رهن أوامره هو

ما مدى حريتنا في عالم اليوم؟

ويمكن أن نوسع مفهوم الحرية كما قدمناه، لننظر على ضوئه إلى أزمتنا الراهنة.. فبعد عصور التخلف والانحطاط والأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. التي تعاقبت على أمتنا، أصابنا الوهن، وقعدت بنا الهمة عن متابعة الدرس والبحث، والسير في الأرض، لكشف المزيد من السنن الكونية، التي كان يمكن أن نستفيد من تسخيرها في عمارة الأرض، وتشييد الحضارة الإنسانية التي نتوق إليها..

وكان من نتيجة تخلفنا أننا أصبحنا اليوم نقف أمام ما استجد في العالم من اكتشافات واختراعات وحقائق، موقف ذلك الذي وقف خائفا مهزوما أمام السيارة، لا يدري ما طبيعتها، ولا كيف يتعامل معها.

وأما (الآخرون) فقد انطلقوا بالمقابل يبحثون ويدرسون ويجربون ويكتشفون، حتى عرفوا الكثير من سنن الوجود، فكسبوا بذلك هامشا رائعا من الحرية.. هذا في الوقت الذي ضاقت فيه مساحة الحرية (المتاحة) لنا.. فانتهت بنا هذه المعادلة غير المتكافئة، أن أمسينا تابعين غير متبوعين، وهذا جانب هام من أزمتنا جدير بوقفة تأمل طويلة

ويخطئ من يظن أن سبب أزمتنا الراهنة نقص في الطاقات المادية.. فإن هذه الطاقات مبثوثة في الأرض كلها، حتى لا تكاد تجد دولة من دول العالم إلا وتجد فيها من الثروات والطاقات ما يغنيها ويكفيها، لتعيش حياة حرة كريمة هانئة.. وربما كانت بلادنا من أغنى الأرض من حيث خصوبة أراضيها، ووفرة الثروات المخبوءة فيها.. فما الذي ينقصنا إذن؟

إن الذي ينقصنا حقا هو موقف متجدد من الحياة، ونظرة متجددة إلى واقعنا.. موقف متجدد ونظرة متجددة ينطلقان على هدى التوجيه الرباني الحكيم (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (يونس: 101) فلقد غفلنا عن هذه الدعوة الربانية أمدا بعيدا، وقصرنا في دراسة السنن التي جعلها الله سببا لتسخير هذا الكون.. ويوم نعاود البحث والدرس، ونفهم طبيعة هذه السنن، ونهيئ الشروط اللازمة لتسخيرها.. فيومئذ يمكن أن تنفتح السبل أمامنا، وتنهار الحواجز التي قيدت حريتنا عصورا طويلة.

***

2- العلم

الصلة وثيقة بين (العلم) ، وبين السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه، فالقوانين التي قامت عليها العلوم المختلفة، ترتكز على أساس من فهم السنن، بل إن القوانين التي ثبتت صحتها بدليل قطعي، ما هي إلا صياغة بشرية، لما اكتشفه الإنسان من السنن الربانية، التي تحكم كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود

ومن المعروف أن القانون العلمي يمر بمراحل عدة، قبل أن يصاغ صياغة نهائية، وقبل أن يصبح قابلا للتطبيق العلمي (أو التسخير) ، وهذه المراحل هي:

أ – الملاحظة: إذ يلاحظ الباحث من خلال تأملاته بالطبيعة، أو من تجاربه في المختبر، أن هناك ظاهرة ما تتكرر في وتيرة واحدة ثابتة.

ب – الفرضية: وبناء على معطيات الملاحظة الأولية يضع الباحث فرضية لتفسير الظاهرة التي استدعت انتباهه.

ج – البرهان: وبعدئذ يصبح على الباحث لزاما أن يستيقن من صحة الفرضية، التي وضعها لتفسير الظاهرة، وفي سبيل ذلك لا بد أن يبحث عن العوامل، التي لها علاقة مباشرة بهذه الظاهرة، وقد يتطلب ذلك منه إجراء بعض التجارب المعملية للبرهنة على صحة ما توصل إليه من معرفة العناصر والعوامل والظروف في حدوث الظاهرة.

د – القانون: فإذا ما نجح الباحث في إعادة تشكيل الظاهرة نفسها فإنه يكون قد فهمها فهما صحيحا وعلم حقيقتها علما يقينيّا، أي أنه يكون قد علم السنة التي تحكمها.. وحينئذ يصبح قادرا على أن يصوغ القانون العام الشامل الذي يحكم هذه الظاهرة، ويحكم كذلك كل الجزئيات المماثلة لموضوع هذه الظاهرة.

ويعد هذا المنهج في البحث هو الأساس الذي قامت عليه العلوم المختلفة.. أي أن الهدف الذي تسعى إليه العلوم قاطبة هو معرفة السنن التي تحكم هذا الكون.

.. ومما لا ريب فيه أن وضع العلماء للقوانين، وتعميم هذه القوانين بعد ذلك على الصورة التي قدمناها، سوف يفقد مبرراته ومصداقيته، ويغدو بلا معنى، لو لم تكن السنن الربانية متصفة بالثبات، وعدم التبدل والتحول، فلولا هذه الصفات لما أمكن لأي باحث أن يضع نظرية، أو يقرر قانونا علميا له صفة العموم والشمول، ولما كان ممكنا أيضا قيام أي من العلوم البشرية المعروفة اليوم وهذا ما يؤكد أن ثبات السنن يشكل الأساس الأول في بنية العلوم؛ لأن ثبات السنن هو الذي جعل من الأمور المسلم بها لدى العقل البشري، أن القانون الذي يصدق على مجموعة معينة من مجاميع الطبيعة، يصدق كذلك على المجموعات الأخرى المماثلة لها.. ونضرب على ذلك بعض الأمثلة:

فقد لاحظ العلماء مثلا أن عنصر الأكسجين يتحد مع عنصر الهيدروجين بنسبة معينة ليتكون من هذا الاتحاد جزئيات الماء، وفق المعادلة التالية:

$$C + O_2 \longrightarrow CO_2$$

ثم لاحظ العلماء أن الأكسجين نفسه يتحد مع الكربون بنسبة مختلفة عن النسبة التي اتحد بموجبها مع الهيدروجين، فينتج من ذلك ثاني أكسيد الكربون كما يلي:

$$2H_2 + O_2 \longrightarrow 2H_2O$$

ثم عرف العلماء أن هذه الظاهرة تتكرر في بقية العناصر الكيميائية، فيتحد كل عنصر مع العناصر الأخرى، وفق نسب معينة تتعلق بالأوزان الذرية لهذه العناصر.. وعندئذ توصل العلماء إلى معرفة السنة، التي يتم بموجبها اتحاد العناصر الكيميائية بعضها مع بعض، وأطلقوا على هذه السنة اسم (قانون النسب) الذي يحمل اليوم اسم الكيميائي (دالتن) .

ونأخذ مثالا آخر من علم الاجتماع.. فعندما لاحظ الباحثون الاجتماعيون أن تفشي ظاهرة اجتماعية معينة في أحد المجتمعات يؤدي إلى حدوث تغييرات واضحة المعالم في بنية هذا المجتمع.. وعندما لاحظوا أن تلك الظاهرة نفسها تؤدي لحدوث نفس التغييرات في المجتمعات البشرية الأخرى.. عندئذ أيقنوا أن حياة المجتمعات قاطبة محكومة بنوع من السنن الصارمة التي تحكم تطورها واتجاهها.. وبناءً على هذه المعطيات استطاع هؤلاء الباحثون تحديد معالم بعض السنن الاجتماعية، ووضعوا على أساسها أصول (علم الاجتماع).

ومن هنا.. يمكن أن نخرج بتعريف أولي للعلم على ضوء علاقته بالسنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، فنقول: (العلم: هو المعرفة اليقينية بالسنن، التي تحكم جزئية من جزئيات هذا الوجود) وهذا التعريف للعلم يحدد لنا المسألة تحديدا دقيقا..

فلا يصح أن أدعي بأن عندي علما بقضية ما من القضايا، ما لم أكن قد عرفت يقينا السنة التي تحكمها، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن معرفة السنة التي تحكم ظاهرة ما، تعني بالضرورة معرفة كل العوامل والشروط المتعلقة بالظاهرة المحيطة بها، وتعني كذلك القدرة على إعادة تشكيل الظاهرة من جديد انطلاقا من تلك العوامل والشروط.. وبمعنى آخر: فإن العلم بظاهرة ما من ظواهر الوجود يعني أمرين اثنين:

1 – القدرة على التنبؤ بنتائج الظاهرة تنبؤا يقينيا، وليس مجرد ظن، لأن الظن قد يصيب وقد يخطئ، ويعني كذلك أننا لم نحط بالظاهرة إحاطة تامة.

2 – القدرة على تسخير الظاهرة نفسها من خلال تهيئة شروطها وأسبابها، التي سبقت معرفتنا بها.

وهذا هو العلم اليقيني، الذي لا يدانيه باطل.

وهذا هو العلم النافع، الذي يمكن به تسخير العالم المحيط بنا تسخيرا صحيحا.

وهذا هو العلم الذي يحثنا القرآن الكريم على تحصيله، وذلك من خلال عدد كبير من الآيات.. فقد وردت كلمة (العلم) بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد عن سبعمائة آية، مشفوع معظمها بالدعوة إلى التأمل في آيات الله (أو سننه) على بصيرة، ووفق المعايير العلمية المبرأة من الظن والهوى.

وقد كان لهذه التوجيهات القرآنية الحكيمة أثر هام في تشكيل العقلية الإسلامية، التي استطاعت فيما بعد إرساء قواعد البحث العلمي، وأصول المنهج التجريبي؛ لأنها أصبحت تنظر إلى الكون نظرة جديدة لا تكتفي بمجرد الدهشة والانبهار، عند اكتشاف سر من أسرار الخلق، أو سنة من سنن الخلق.. بل أصبحت تنظر إلى الوجود نظرة علمية إيجابية، تستهدف فهم السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، ومن ثم تسخير هذه السنن، و الاستفادة من معطياتها في تصريف شئون الحياة، وعمارة الأرض على الوجه الذي أمر به رب العزة سبحانه.

علم الكتاب والحق.. أن القرآن الكريم لم يقف بالمسلمين عند هذه الحدود في حثهم على العلم، بل تجاوز ذلك إلى تحريض العقلية الإسلامية على التحليق نحو آفاق أبعد وأرحب، حين تحدث حديثا مسهبا عن واقعة خارقة للعادة، ثم ربطها ربطا مباشرا بقضية العلم، وتلك هي قصة نبي الله (سليمان) عليه السلام مع (بلقيس) ملكة (سبأ) الذي طلب من جنوده إحضار عرشها قبل أن تأتيه وقومها مسلمين، فتصدى لهذه المهمة الصعبة واحد من الجن (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) (النمل: 39) ، لكن سليمان عليه السلام كان يطمح للحصول على العرش بأسرع من ذلك، فراح ينظر فيمن حوله متسائلا عمن يستطيع تحقيق حلمه، وعندئذ (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (النمل: 40) ، وما هي إلا لحظات خاطفة حتى كان العرش الثمين بين يدي النبي عليه السلام .

وواضح من خلال السرد القرآني البليغ لهذه القصة الطريفة، أن قضية إحضار العرش من أقصى اليمن، حيث كانت تعيش الملكة بلقيس، إلى فلسطين ، حيث كان يعيش نبي الله سليمان، كان أمرا معجزا خارقا للعادة آنذاك، يوم لم يكن معروفا من وسائل التنقل غير الدواب.. لكن الملفت للنظر حقا، أن القرآن الكريم لم يعرض الواقعة بوصفها أمرا معجزا وكفى، بل عرضها عرضا متميزا يدعو للتأمل والتدبر، إذ نجده يؤكد على دور العلم في القضية، نلمح ذلك من خلال معالجة كل من العفريت والذي عنده علم من الكتاب لهذه القضية.. فالعفريت من الجن أراد إحضار العرش معتمدا على قدراته الجسدية، التي منحه الله إياها خلقة فقال: (وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) وأما (الآخر) الذي أحضر العرش فعلا خلال زمن قياسي قصير جدا فقد لجأ إلى (العلم) الذي تشير الآية الكريم إلى أنه (علم من الكتاب)

وقد اختلف المفسرون في بيان حقيقة هذا الكتاب، فقال بعضهم: إنه التوراة. وقال بعضهم الآخر: إن الذي أحضر العرش كان يعرف اسم الله الأعظم. وقال آخرون أقوالا غير هذا وذاك ودون تعليل مستيقن، ونحن نرى أن الأمر أقرب وأظهر من ذلك كله، حين ننظر إليه بمنظار الواقع الملموس.. فكم في هذا الكون الرحيب من أسرار نجهلها.. وكم فيه من سنن لا ندركها.. وحينما يشاء الله عز وجل أن يكشف شيئا من ذلك، فإنه يهدي من يشاء إلى (السر) ، ويرشده إلى فهم بعض السنن الكونية التي يحصل من تسخيرها ما يبدو لنا – نحن الجاهلين بذلك السر – أنه خارج عن المألوف، خارق للعادة.

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن نفهم كيف حقق ذلك العبد (الذي عنده علم من الكتاب) تلك الخارقة العظيمة في نقل عرش الملكة آلاف الأميال خلال لحظات خاطفة

واليوم.. نحن نعيش هذه الثورة العلمية، التي تطلع علينا كل صباح باختراعات وإنجازات مذهلة، نجد أنفسنا وقد أصبحنا أقرب إلى فهم تلك الواقعة التي حدثنا القرآن عنها، كما أصبحنا ندرك إدراكا مباشرا لماذا ربطها بقضية (العلم) ، وبخاصة أن العلم الحديث قد أتاح لنا تحقيق منجزات تقارب تلك الخارقة في عظمتها، وذلك بفضل الله الذي هدانا إلى كشف الكثير من السنن، التي مهدت لنا صنع الطائرات النفاثة، والمركبات الفضائية، القادرة على الطيران بسرعات تتجاوز الصوت بمرات ومرات

وقد تناقلت وكالات الأنباء مؤخرا أن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت فعلا بتنفيذ مشروعها الطموح لإنتاج (قطار الشرق السريع الجديد) وهو في الواقع ليس قطارا بل طائرة صاروخية تفوق سرعتها سرعة الصوت بنحو (25 مرة) تستطيع مثلا قطع المسافة القصية ما بين (لندن) في إنجلترا و(سيدني) في استراليا بأقل من (45 دقيقة) وهذه المسافة تزيد أضعافا مضاعفة عن المسافة التي نقل عبرها عرش بلقيس.

وهذا يعني أن الإنسان – بما حصله حتى الآن من علم بسنن الطيران – قد تجاوز سرعة الجن (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) وسوف يواصل الإنسان – بإذن الله – رحلة بحثه هذه حتى يقترب أكثر فأكثر من تحقيق السرعة القرآنية الأخرى (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)

التي بدأنا نلمح بعض تباشيرها فيما توصل إليه حتى الآن، من اختراعات فذة في مجالات الاتصال اللاسلكي، إذ أصبح التلفزيون مثلا قادرا على نقل الأحداث إلينا لحظة حدوثها في أية بقعة من بقاع الأرض، أو الفضاء البعيد.. كما أن وسائل الاتصال الإلكتروني يسرت لنا اليوم نقل الرسائل المكتوبة عبر الهاتف فيما يعرف بـ (الفاكسميلي) وهذه كلها بعض تباشير تحقيقنا لتلك السرعة القرآنية التي أشرنا إليها

ونعود من جديد إلى رحاب القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، لكي نتوقف عند هذا البيان المعجز في قوله تعالى: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (النمل: 40) فإن هذه الآية لم تبين لنا شخصية ذلك الذي (عنده علم من الكتاب) أبشر هو أم جني؟ وهي لفتة جديرة بالتأمل، وأن نقف عندها طويلا، ونجعلها مع الإشارة السابقة إلى (الكتاب.. بهذا اللفظ المعرف المبهم) دليلا قويا على وظيفة العلم في عملية التسخير.. وكأن الآية الكريمة تريد أن توحي لنا بأن العلم ما هو إلا (كتاب) مبثوثة حروفه وكلماته في أرجاء هذا الكون الفسيح، وما على الذين يريدون الاستفادة مما في هذا الكتاب إلا أن يحسنوا القراءة فيه.

وهم – بطبيعة الحال – لن يحسنوا القراءة أبدا إلا أن يسيروا في الأرض بقلوب مبصرة، ونفوس تواقة للمعرفة، على هدي التوجيه الرباني الحكيم (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (يونس: 101) ، لكي يتفكروا في السنن التي تحكم هذا الوجود، ويستجلوا حقيقتها في الآفاق وفي أنفسهم، ثم يعملوا على تسخيرها كما أمرهم بذلك رب العزة سبحانه وبهذا المنهج يمكن أن نهتدي – بإذن الله – إلى السنن التي على نهجها تسير الحياة.. وهذا هو الطريق الصحيح للوصول إلى (العلم) الحقيقي الذي سوف يحقق لنا في المستقبل ما نراه اليوم مستحيلا .

***

3- علم الغيب

* الغيب: خلاف الشهادة.

* وكل ما غاب عن إدراكنا فهو غيب بالنسبة لنا.

* والغيب غيبان:

أ – (غيب مطلق) ويشمل كل المغيبات المتعلقة بالعالم الآخر، وهذا النوع من الغيب يمكن أن نعلمه علما يقينيا عن طريق واحد لا ثاني له، وهو طريق الوحي الثابت الصحيح..

ب – (غيب نسبي) ويشمل المغيبات في عالم الشهادة التي تتعلق بالماضي أو بالحاضر، وهي مغيبة عنا إما بسبب وجود مانع يحول دون علمنا بها، أو لأن الوسائل التي بين أيدينا لا تسعفنا في الكشف عنها، وهذا النوع من الغيب يمكن أن نتوصل لمعرفته بصورة يقينية قاطعة، بوسائلنا الخاصة.

ومن المعروف أن الإنسان تطلع منذ وقت مبكر من تاريخه إلى عالم الغيب، وتثبت سجلات التاريخ أن الإنسان قام بمحاولات كثيرة جدا لكي يستشف آفاق المستقبل، وتشير الآثار القديمة، وبعض الأساطير والحكايات إلى تلك المحاولات، التي لا نشك أبدا أنها باءت بالفشل لأنها اعتمدت على الظن أو الخيال، ولم تلتفت إلى دور العلم في هذه المسألة.

ولقد سبق الحديث عن أن العلم يعني المعرفة اليقينية بالسنن الربانية، التي تحكم ظاهرة من الظواهر الكونية، وأن السنن ذاتها تقوم على أساس أولي من ارتباط العلة بالمعلول، أو ارتباط النتيجة بالسبب ارتباطا لازما، وهذا يعني أن اجتماع أسباب معينة يؤدي إلى نتيجة معينة بإذن الله.. وانطلاقا من هذه الحقيقة، يمكن أن يكتسب الإنسان قدرة ما على التنبؤ بأمور مغيبة عنه، فعندما تتوافر لديه مجموعة من القرائن أو المقومات أو الأسباب، فإنه يمكن أن يتنبأ بالمغيبات، التي ترتبط بها من النتائج، كأن يتنبأ مثلا بهطول المطر عندما تتراكم الغيوم في السماء، وتتهيأ الظروف الجوية المواتية، أو يتنبأ بحدوث زلزال عندما تشير أجهزة

الرصد الجيولوجية إلى حدوث تحركات في طبقات الأرض، أو يتنبأ بإصابة إنسان ما بمرض معين، بعد تعرضه للعدوى من مصدر معروف.. وهكذا.

إلا أن تنبؤ الإنسان على هذه الصورة يبقى ناقصا لسببين اثنين:

أ – لأن هذا التنبؤ قابل للخطأ والصواب، بمقدار ما يكون الإنسان قد عرف من شروط وظروف الظاهرة التي يحاول التنبؤ بما وراءها.

ب – لأن هذا التنبؤ ليس أوليا، أي أن الإنسان لا يعلم الغيب علما أوليا بلا مقدمات، بل هو يتنبأ اعتمادا على أساس ارتباط النتيجة بالسبب، ولهذا تبقى نبوءته ناقصة.. فهي ليست كعلم الله بالغيب؛ لأن علم الله عز وجل هو علم أولي تام لا يدانيه الخطأ أبدا، ولا يقف دونه مانع، فهو علم غير مرتبط بزمان ولا مكان ولا أسباب، فالله سبحانه يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هو وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: 59) ، ولا عجب، فالله عز وجل هو الذي خلق الخلائق كلها، وقدر الأسباب والنتائج، وأحاط بكل شيء علما (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سبأ: 3) . ويرجع اهتمامنا بالبحث في العلاقة ما بين سنن الله في الخلق وبين معرفة الغيب، إلى أن هذه العلاقة يمكن أن تمدنا بقدرات باهرة لم نكن نملكها من قبل، وتفتح أمامنا آفاقا لم تكن مفتوحة.

ومما لا ريب فيه أن الإنسان عندما بدأ الاهتمام بالبحث العلمي، واكتشف أن مخلوقات الله جميعا تخضع لسنن ثابتة مطردة لا تتخلف، قد اكتسب من خلال ذلك رؤية جديدة للعالم، الذي يعيش فيه، فراح على ضوء رؤيتة الجديدة هذه، يتعامل مع الكون تعاملا أكثر إيجابية وفعالية، إذ أمدته معرفته بسنن الله بقدرات إضافية، أعانت على التنبؤ بوجود ظواهر ومخلوقات، لم يكن يعلم عن وجودها شيئا من قبل.. ولعل خير مثال على هذا ما حدث مع العالم الروسي الشهير (مندلييف) الذي وضع الجدول الدوري للعناصر الكيميائية عام 1869م.. فقد لاحظ هذا العالم أن ذرات العناصر التي كانت معروفة في زمانه تتركب وفق نظام، أو سنة معينة، اذ يتعقد تركيبها بالتدريج واحدا بعد الآخر، فقد وجد مثلا أن أبسط العناصر هو (

الهيدروجين) وتتركب ذرته من نواة فيها بروتون واحد ونترون واحد، ويدور حولها بروتونان يدور حولهما الكترونان.. وهكذا يزداد تركيب العناصر تعقيدا واحدا بعد الآخر إلى نهاية الجدول، وفق سنة مطردة تدل على النظام البديع الذي ركبت الذرات على أساسه.

وقد درس مندلييف العناصر الكيميائية التي كانت معروفة في زمانه، ثم رتبها في جدول بحسب تركيبها الذري، من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا، فلاحظ خانات في الجدول ظلت فارغة، ولما كان مندلييف واثقا من وجود قانون صارم (أو سنة) يحكم تركيب هذه العناصر وفق نظام مطرد، فقد استدل من هذه الخانات الفارغة على وجود عناصر في الطبيعة، لم تكتشف بعد، وبعد دراسة عميقة، وبحث شاق استطاع مندلييف، أن يقدر بعض صفات العناصر المغيبة، وقام بوضع تقرير مفصل عنها ذكر فيه خصائصها، التي تنبأ بها بناء على موقعها من الجدول.

وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى جاءت الاكتشافات، فأكدت صدق ما تنبأ به مندلييف، ففي عام 1875م اكتشف عالم فرنسي أحد العناصر التي تنبأ بوجودها في الطبيعة، وأطلق عليه اسم (غاليوم) نسبة إلى بلاد الغال حيث اكتشف هذا العنصر، وفي عام 1879م اكتشف عالم سويدي عنصرا آخر من تلك العناصر، أطلق عليه اسم (سكانديوم) وبعدها اكتشف عالم ألماني العنصر الثالث، عام 1887م وأطلق عليه اسم (جرمانيوم) نسبة إلى ألمانيا.. وكانت خصائص هذه العناصر المكتشفة مطابقة للخصائص التي تنبأ بها مندلييف إلى درجة تبعث على الدهشة.

وبمثل هذا الفهم لطبيعة السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق، يمكن أن يكتسب الإنسان القدرة على التنبؤ ببعض ما سوف يجيئ به في المستقبل، ومن هذا المنطلق راح علماء الاستشراف المستقبلي يحدثوننا في ثقة تامة عن الغد وكأنهم يرونه عيانا.. ومن ذلك مثلا (أن علماء الفلك يتنبأون بأن الليل والنهار لن يظلا على ما هما عليه اليوم بعد مرور خمسة آلاف مليون سنة مثلا، فهم يتنبأون أن اليوم بعد هذا العمر الطويل لن يكون 24 ساعة بحساباتنا الحالية، بل سيصير 36 ساعة، وهذه الحسابات لا تأتي هكذا اعتباطا؛ لأن العوامل الكثيرة التي تتسلط على أرضنا تؤدي إلى إبطاء دورانها حول نفسها، وإبطاء الحركة ينعكس على إبطاء الزمن، بحيث يؤدي ذلك إلى جعل يومنا الحاضر أقصر من غدنا بحوالي 000.000.25/ثانية أي 25 جزءا من ألف جزء من الثانية.. ويتنبأ العلماء كذلك بحصول أطول كسوف للشمس (سيستمر لمدة

سبع دقائق و28 ثانية) وذلك يوم 16 تموز (يوليو) عام 2186م أي بعد حوالي 196 سنة (أطال الله في أعماركم) وكلنا نذكر دون ريب المذنب الشهير (هالي) الذي ظهر في سمائنا يوم 9 شباط (فبراير) من عام 1986م في تمام الساعة التاسعة والنصف، والذي استعد العلماء لظهوره ورصده، قبل هذا التاريخ بسنوات عديدة؛ لأنهم كانوا يعلمون موعد تشريفه.

وهناك إلى جانب ما ذكرناه تنبؤات عديدة لا تقل غرابة وإثارة.. نذكر منها ما يلي:

يقول العالم (ريتشارد سيلزر) : (إن أهم التطورات التي ستفضي إليها البحوث في العشرين سنة المقبلة، ستكون بلا شك العقاقير المضادة للفيروسات، واللقاحات التي ستؤدي إلى انقراض الأمراض السارية من على وجه الأرض.. أما علم الهندسة الوراثية، فسوف يساعد في القضاء على العاهات الوراثية، التي ضربت المجتمعات منذ زمن بعيد.. يقيني أن التحكم بالتقنيات المختصة بمعاملة الموروثات البشرية ستخلف سلالات بشرية متفوقة، وأن هذه الحقيقة قد بدأت بشائرها اليوم.

وعلى المستوى الاجتماعي والنفسي والسياسي هناك تنبؤات أكثر غرابة وأبعد شأوا، يقول الأستاذ (تيموتي ليري) .. سوف نشهد في العقود المقبلة اضمحلال السياسات الحزبية، فهذه من مخلفات العهود الإقطاعية، أو من بقايا العصر الصناعي، في أحسن الأحوال، فمن الجنون أن يتم حكم أمريكا مثلا – وهي ذلك المجتمع التكنولوجي المعقد والتعددي – على هذه الصورة المتخلفة.. سوف نصبح كلنا مسئولين ومشاركين في الحكومة، وسنقوم بالتصويت الإلكتروني، ومن منازلنا، ولن نحتاج إلى مرشحين حزبيين مخاتلين، يلعبون على أوتار معتقداتنا وعواطفنا.

ويقول أيضا: (في غضون العشرين سنة المقبلة ستطرح في الأسواق مئات الأصناف المتطورة من (النواقل العصبية) التي تسمح بتنشيط الدماغ، وتحسين الأداء الفكري، وتعديل المشاعر والأحاسيس، بالكيفية التي تريد، وستظهر كذلك (أجهزة الراديوات الدماغية) القادرة على التقاط الموجات الكهربائية الصادرة عن الدماغ، وتعديل كيفيتها، بحيث يمكن تسريع عملية التفكير أو إبطائها، وهذه الأجهزة سوف تعيننا على التفكير بوضوح، وعلى التواصل فيما بيننا بصورة أفضل، وهكذا أخذت تظهر يوما بعد يوم تنبؤات جديدة لعلماء الاستشراف المستقبلي، لتضيء لنا صورة المستقبل شيئا فشيئا، حتى كأننا نراه عيانا..،

وهي ليست مجرد تنبؤات للتصدير الإعلامي، بقصد التشويق والإثارة، بل هي في الحقيقة تشكل الهيكل الأساسي للبرامج، التي تعتمد عليها شركات الإنتاج والتصنيع، التي أصبحت بسبب تسارع إيقاع العصر، تهتم بالمستقبل، ربما أكثر مما تهتم بالحاضر وهذه التنبؤات ليست تنبؤات منجمين يضربون بالرمل، ولا شطحات شعراء يهيمون وراء الخيال.. بل هي تنبؤات تقوم على أسس راسخة من المعرفة الصحيحة بطبيعة السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق.. فهذه المعرفة هي التي أمدت العلماء بقدرات عظيمة، استطاعوا بها استشراف آفاق المستقبل، واستنكاه ما سوف يقع فيه من أحداث، وما سوف يطرأ عليه من تحولات بالغة الغرابة.

ومما لا ريب فيه أن مثل هذه التنبؤات، ستعطي العلماء بعدا جديدا للحركة ومجالا أرحب للفكر النظري والتطبيقي، مما سيعينهم بإذن الله على وضع البرامج المستقبلية، الكفيلة بمواجهة التغيرات القادمة، بصورة أكثر فعالية، وأقدر على الاستفادة من عامل الوقت، وتجنبهم الأخطار القادمة؛ لأنهم يكونون قد أخذوا حذرهم تجاهها، بل قد يستطيعون تسخير هذه الأخطار لصالحنا نحن البشر، بدل أن نكتوي بنارها وكما قالوا (من عرف لغة قوم أمن شرهم) وكذلك هي معرفتنا بالمستقبل، فهي تجعلنا نأمن شره، وتقلل من أخطائنا، وتجعلنا نتعامل معه تعامل الصديق، الذي يعرف صديقه جيدا.. ولا سبيل إلى هذه المعرفة بالمستقبل غير السير في الأرض، واستكشاف السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه.

***

4- الخير والشر

.. بينا في فصل سابق أن الله عز وجل خلق هذا الكون البديع، وبث فيه من المخلوقات أنواعا كثيرة لا تعد ولا تحصى.. وذكرنا أن هذا التنوع في الخلق، يستتبع وجود نوع مماثل في السنن التي تحكمه.. وقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه أن تكون هذه السنن موافقة لطبيعة الأمانة، التي وكل الإنسان بها.. كما اقتضت حكمته أن يترتب على الأخذ بهذه السنن نتائج خيرة، إذا ما أخذ الإنسان بها على الوجه الذي بينه الشارع الحكيم، وأما إن أخل الإنسان بهذا الشرط، فإن النتائج تنقلب شرا والعياذ بالله..

ومن هنا كان الحلال والحرام في شريعة الله، وكانت ضرورة إرسال الرسل إلى الناس لكي يبينوا لهم طريقة الأخذ بالسنن، التي تعينهم على أداء الأمانة العظيمة، التي خلقوا من أجلها.. وهذه من أعظم نعم الله على الخلق، فلو أنه تركهم يعيشون في هذه الحياة بلا زاد ولا مرشد، لتاهوا وضلوا.. ولكنه – بسبب رحمته الواسعة – أرسل إليهم من يرشدهم إلى الطريق، ويدلهم على كيفية التعامل مع هذه الحياة تعاملا يثمر الخير والصلاح.

❋ ونضرب للأمر مثلا..

فقد قدر الله عز وجل لبقاء النوع الإنسان سنة تقوم على التقاء الرجل بالمرأة، وغرس في كل من الجنسين ميلا وشوقا وتعلقا بالآخر، حتى تفعل هذه السنة فعلها، وتحقق الهدف المنشود منها.. ولكن الله عز وجل لم يدع هذه السنة رهن الميل الجنسي وحده، بل جعل لها شروطا عديدة،، لا بد من مراعاتها، حتى تؤدي السنة وظيفتها على الوجه الصحيح، وحتى تعود بالخير على الزوجين والأولاد، الذين يأتون ثمرات لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة.. ونحن لا نريد أن ندخل في الحديث عن كل الشروط التي اشترطها الشارع الحكيم للعلاقة الزوجية، فهي كثيرة، ولكننا سنكتفي بالوقوف عند الشروط الغريزية (الفسيولوجية) لكي نبين بعد ذلك ما ينتج عن الإخلال بهذه الشروط التي منها:

- ألا تكون الزوجة من المحرمات، كالأخت، وبنت الأخ وبنت الأخت..

– ألا ترتبط المرأة – في وقت واحد – بأكثر من زوج واحد.

– فإن أرادت الزواج بآخر، لوفاة الأول أو لطلاقها منه، فلا بد لها من الانتظار فترة (عدة) قبل أن ترتبط بالآخر.

– فإن أراد زوجها أن يواقعها فلا يحل له أن يواقعها إلا في طهر.

– ولا يحل له أن يأتيها إلا من حيث أمر الله. وهكذا نجد أن الأحكام الفرعية، بينت مجموعة من الشروط الكفيلة – بإذن الله – بوقاية الزوجين من الأضرار والأمراض، التي تنشأ عادة من العلاقات الجنسية المحرمة، والتي أقلها الأمراض الجنسية الفتاكة، التي يلاحظ تفشيها بين الزناة خاصة.

❋ مثال آخر..

ونذكر أن الإشعاع الذري الذي اكتشفت قوانينه وطبيعته في مطلع هذا القرن، أصبح خاضعا الآن للتسخير من قبل العلماء.. وقد وجدنا أن هؤلاء قد سخروه تارة في الخير، وذلك حين استخدموه لتشخيص بعض الأمراض، وعلاج بعضها الآخر.. وحين استخدموه في توليد الطاقة الكهربائية، وفي إدارة المصانع وتشغيلها، وفي دفع السفن والغواصات، وهذه كلها أغراض نبيلة خيرة.

إلا أن علماء آخرين استخدموا الإشعاع ذاته في الشر، فوضعوه في قنابل ذرية دمرت على الناس مدنهم وحضارتهم، وما نكازاكي وهيروشيما عنا ببعيد.

وهذا يعني أن سنة الإشعاع نفسها قد سخرها الإنسان تارة في الخير.. وتارة في الشر..

❋ ومثال ثالث..

فقد خلق الله العناصر الكيميائية، وجعل في كل منها صفات محددة، باتت معلومة للعلماء، وقد استطاع هؤلاء بما اهتدوا إليه من سنن الكيمياء أن يركبوا مركبات عديدة جدا من تلك العناصر، ويكفي أن نذكر أننا يمكن أن نحصل من تلك العناصر على أدوية نافعة تدفع عنا آلام المرض وأضراره.. وهذه غاية طيبة

خيرة.. كما يمكننا أن نصنع من العناصر ذاتها سموما ومخدرات تسبب لنا شتى أنواع الضرر والأذى.. وربما الموت والهلاك.. وأحسب أنه ظهر لنا من خلال هذه الأمثلة أننا قادرون بمشيئة الله على تسخير السنن الربانية في الخير، أو في الشر، فنحن أمام هذه السنن واقعون بين خيارين كما قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: 10) ، فإما أن نوجه هذه السنن نحو الخير، وعندئذ نفوز وننجو، ونحقق الخير، الذي نصبوا إليه.. وإما أن نوجهها نحو الشر.. وحينئذ.. لا نلومن إلا أنفسنا؛ لأن الخسارة ستكون نصيبنا لا محالة.

***

وثمة أمر آخر له صلة بحديثنا عن الخير والشر، وعلاقتهما بسنة الله في الخلق، فقد سبق أن قلنا عند استعراض صفة الاطراد في السنن: إن السنن تمضي نحو غاياتها المقدرة، وتقع نتائجها كالقدر المحتوم، كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها، فهي من هذه الوجهة مثل أصيص الزهور، الذي يهوي من شرفة عالية، فبعد أن يبدأ الأصيص رحلة سقوطه، فإنه دون ريب سيمضي فيها حتى النهاية، ولن يتوقف إلا أن يرتطم بالأرض، أو بجسم آخر ينهي رحلة سقوطه.. وكذلك هي سنن الله في الخلق، فهي تمضي حتى النهاية كلما توافرت شروطها.. وكما أن أصيص الزهور حين يهوي لا يميز بين أن يسقط على الأرض، أو يسقط على رأس طفل برئ، أو على رأس لص محتال، أو على رأس امرأة حامل.. فكذلك سنن الله حين تتوفر شروطها فإن نتائجها قد تصيب البرئ أو المذنب من غير تمييز.. وهذه الحقيقة تضع الإنسان وجها لوجه أمام مسئوليته في الاختيار، فما دام أنه حر في تسخير السنن وتوجيهها نحو الخير أو الشر، فإن عليه أن يتحرى في اختياره، خشية أن يرتكب الخطأ القاتل، فيوجه سنة نحو الشر، بينما كان يريد أن يوجهها نحو الخير .

***

5- الدعاء

ليس الدعاء مجرد ألفاظ تجري على لسان الإنسان، بينما أفعاله تكذب ما يقول: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يارب يارب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟)) وإنما الدعاء جهد واعٍ ومسئولية.

فهو جهد واعٍ لأنه – كما أسلفنا – ليس مجرد ألفاظ تقال، بل هو موقف نفسي متميز، يتطلب من المرء أن ينتقل من موقفه السلبي، الذي كان عليه حين ارتكب الخطأ، إلى موقف ملؤه العزم والتصميم، على تجاوز الخطأ، والعودة إلى الحق

والدعاء مسؤولية.. لأن العبد منذ اللحظة التي يتوجه فيها إلى ربه بالدعاء، يصبح مسئولا عن موقفه، هذا، الذي يتضمن عهدا مع الله، ألا يعود إلى ما كان عليه من سلوك، وما ارتكبه من ذنب.. فإن عاد كان كالمستهزئ بربه، وكان عهده مع الله حجة عليه

وكما يكون الدعاء من العبد رغبة في محو ذنب، أو تجاوز زلة، فكذلك قد يكون الدعاء طمعا في تحصيل نفع، أو تحقيق مطلب، وهو أمر مشروع دون ريب، إلا أن له شروطا من أهمها ألا يخالف الدعاء معلوما من الدين بالضرورة، وألا يبتغي مخالفة سنة من سنن الله في الخلق.. فمثل هذا الدعاء غير قابل للإجابة أصلا، فليس للإنسان مثلا أن يدعو الله أن يسقط عنه أمرا معلوما من الدين بالضرورة، كأن يسأل الله إعفاءه من تكليف شرعي، كالصلاة أو الزكاة أو غيرها.. وليس للإنسان أن يدعو الله ليبطل سنة من السنن التي فطر عليها أمور خلقه.. وما ظنك بإنسان يلقي بنفسه من شاهق، وهو يرفع كفيه إلى السماء ضارعا: (يارب أبطل سنة الجاذبية الأرضية) هل يستجاب له؟ وكذلك هي حال الذين يتجاهلون سنن الله، ويحسبون أن مجرد الدعاء سيشفع لهم عن بارئهم، متناسين أو متجاهلين التوجيه الرباني الصريح في هذه المسألة: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مَنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا

وَلا نَصِيرًا) (النساء: 123) فالمسألة ليست مجرد أدعية ولا أماني، وإنما عمل أو لا عمل؛ لأن العمل هو مناط النتائج، فإن كان العمل متوافقا وسنن الله كان مجديا.. وأما إن كان مخالفا للسنن، فإنه لا يجدي أبدا، بل قد تنجم عنه نتائج وخيمة

إذن.. أين هو موضع الدعاء من حركة الإنسان وعمله.؟

لا ريب أن للدعاء وظيفة عظيمة الأهمية في حياتنا، ودليل ذلك تلك الآيات الكثيرة والأحاديث التي تحثنا جميعا على التضرع لله، وطلب المعونة منه.. (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر: 60) ، (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) (البقرة: 186) ، (الدعاء مخ العبادة) .. ولكن ليس معنى هذا أن يتوقف كل نشاط الإنسان على الدعاء وحده.. فاللدعاء مواضع يجدي فيها بإذن الله، ومواضع لا جدوى للدعاء فيها كما سبق أن بينا.. ويكفي أن نشير إلى القاعدة العريضة التي ترتكز عليها الأعمال الناجحة، وهي أن يستكمل الإنسان الشروط، التي يعتقد أنها لازمة للعمل، الذي يزمع القيام به، ثم يقبل على العمل متوكلا على الله، سائلا إياه التوفيق والرشاد.

وأما الإقدام على العمل من غير توفير تلك الشروط، فإنه يعد إخلالا بالقيام بمهمة الاستخلاف بالأسباب التي ناطها الله بنا.. لأن من شروط القيام بهذه المهمة أن نأخذ أولا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي ترك دابته سائبة، وادعى أنه متوكل على الله في الحفاظ عليها: (اعقلها وتوكل) اعقلها.. خذ بأسباب حمايتها وحفظها.. ثم توكل على الله.

وهكذا يجب أن يكون سلوكنا في هذه الحياة.. نأخذ بالأسباب ونهيئ الظروف، ونراعي الشروط.. ثم تبقى قلوبنا معلقة بالله، ضارعة إليه أن يسدد خطواتنا، وأن يلهمنا الرشاد، وأن يهدينا إلى السبل، التي تعيننا على إنجاز أعمالنا على أحسن ما نحب ونشتهي.. وعندئذ يجدي الدعاء بإذن الله.

***

6- الابتلاء والمحنة

.. لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن تكون حياة الإنسان فوق هذه الأرض سلسلة متواصلة لا تكاد تنتهي من الابتلاءات والمحن، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (الملك: 1-2) وهذا الابتلاء قد يكون بالخير أو بالشر: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء: 35)

وقد يكون الابتلاء للمؤمنين في سبيل تمييز المجاهدين منهم والصابرين (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (محمد: 31) فالابتلاء يمكن أن يكون في أي شأن من شئون الحياة، فالله عز وجل خلق البشر، واستخلفهم في الأرض، ولم يتركهم يهيمون على غير هدى، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، فبينوا لهم سنن الهداية والرشاد، وبشروهم بالفوز في الدنيا والآخرة، إن هم أخذوا بها واتبعوها، كما حذروهم من مخالفة هذه السنن، وأنذروهم من عذاب الله إن هم ضلوا عنها، وتنكبوا جادة الصواب.. فلم يعد إذن للناس من حجة بعد الرسل، بل أصبحوا بعد الرسالات في غمرة الابتلاء والاختبار، وغدوا مطالبين بتحري الصواب في شئونهم كلها، وإلا سقطوا في الامتحان، خسروا الدنيا والآخرة.. ويالها من خسارة وفي هذه الطريق الصعبة، طريق الابتلاء تعترض الإنسان شدائد ومحن شتى فنجد أنه يتخذ حيالها أحد موقفين:

❋ الموقف الأول:

حين تصيب الإنسان شدة من غير قصد منه، ولا إرادة، ولا تدبير، فهذا الموقف هو ما يصح أن نطلق عليه اسم (الابتلاء) ، والعبد المؤمن مأمور حين يبتلى على هذه الشاكلة أن يصبر على الشدة، وألا يقنط من رحمة الله، وأن يسأل الله تفريج كربه.. وهو مأجور بإذن الله على ذلك كله.

* الموقف الثاني:

حين تصيب الإنسان شدة نتيجة تدبير منه، واختيار، أو ممارسة فعلية خاطئة، فهذا النوع من الابتلاء يصح أن نسميه مصيبة أو عقوبة، حلت به نتيجة ما قدمت يداه.

ونضرب لهذين الموقفين مثالين من عالم الطب والصحة.. فالمرض يمكن أن يصيب الإنسان دون أن يكون قد عرض نفسه للأسباب الداعية للمرض، بل قد يكون اتخذ الاحتياطات الوقائية، التي يغلب على ظنه أنها تمنع المرض، ولكنه مع هذا يصاب بالمرض.. ففي مثل هذه الحال نقول: إن الشخص تعرض للابتلاء.

وأما المثال الآخر، فهو نقيض للأول، ونشاهده عندما يصاب الشخص بالمرض نتيجة تفريطه في أمور صحته، وعدم أخذه بأسباب الوقاية، كأن يتناول طعاما أو شرابا يضر بصحته، أو يزني، أو يتناول المخدرات.. فهذا الشخص يعد مفرطا في أمر صحته، ومن ثم يصح أن نعد ابتلاءه نوعا من العقوبة، التي حلت به نتيجة مخالفته لقواعد الصحة أو للسنن التي بها يمتنع المرض بإذن الله.

ويظهر لنا هنا الفارق الجوهري ما بين الابتلاء والعقوبة.. ويمكن أن نسوق أمثلة كثيرة لزيادة الإيضاح، ولا بأس أن نتناول موضوع الجهاد من هذا المنظور، وبخاصة أنه كثر الحديث حول هذا الموضوع في أيامنا الحاضرة.. فالمؤمنون مأمورون ابتداءً بالإعداد لمواجهة أعدائهم قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهِ يَعْلَمُهُمْ) (الأنفال: 60) فبعد هذا الأمر الرباني الصريح بالإعداد لا يصح أن يغفل المؤمنون عن أخذ الأهبة، وتجهيز ما يلزم من عتاد وعدد، استعدادا للجهاد، ولا يجوز لهم أن يدخلوا المعركة ضد معسكر الكفر، إلا بعد أن يستوفوا شروط القتال، فيخططوا للمعركة تخطيطا دقيقا واعيا بكل الملابسات، ويجندوا طاقاتهم البشرية والمعنوية تجنيدا مناسبا، حتى يغلب على ظنهم أنهم أخذوا بالأسباب، التي تكفل لهم النصر بإذن الله.. فإن هم فعلوا هذا، ودخلوا المعركة صابرين مقبلين غير مدبرين، ثم لم ينتصروا، كانت هزيمتهم حينئذ ابتلاء من الله؛ لأن الهزيمة وقعت لأسباب خارجة عن إرادتهم وتدبيرهم.. والمجاهدون حينئذ مأجورون بإذن الله على جهادهم على الرغم من هزيمتهم. وعلى النقيض من ذلك تكون حال

المؤمنين، لو أنهم دخلوا المعركة بلا إعداد ولا تخطيط ولا معرفة بأصول القتال.. لأن هزيمتهم حينئذ تكون عقوبة على ما فرطوا في أمرهم، ولمثل هذا ألمحت الآيات الكريمات من سورة آل عمران، والتي حملت المؤمنين مسئولية ما أصابهم يوم (أحد) ، عندما قصر بعضهم، فغادروا مواقعهم التي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتزامها، وذلك طمعا منهم في الغنيمة، فقال الله تعالى في حق هؤلاء: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: 165) والمصيبة التي تشير إليها الآيات الكريمات، هي ما أصاب المسلمين يوم أحد من قتل السبعين منهم، وأما الإشارة في قوله تعالى: (قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) فتعني يوم بدر ، فقد قتلوا في ذلك اليوم سبعين رجلا من المشركين وأسروا سبعين آخرين، وقد أرجعت الآيات سبب المصيبة التي أصابتهم يوم أحد إليهم هم أنفسهم (قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) (آل عمران: 165) بمعنى أن هزيمتهم كانت عقوبة لهم على تفريطهم.

ولعلنا بهذه الأمثلة قد أوضحنا بما يكفي الفرق ما بين معنى الابتلاء، ومعنى العقوبة، إذ كثيرا ما يخلط الناس بين المعنيين، فيظنون أن المصائب التي تنزل بهم نتيجة أخطاء يرتكبونها، أو نتيجة مخالفة لسنة معروفة من السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق.. يظنون ذلك نوعا من الابتلاء يكرمهم الله به، فنراهم يستبشرون بما ينزل بهم، لاعتقادهم بأن الله اختارهم للابتلاء كرامة لهم، حتى يجزل لهم الجزاء.

- وكان حريا بمثل هؤلاء أن يحسوا بالندامة على ما بدر منهم..

- وكان الأجدر بهم أن يرجعوا إلى أنفسهم (قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

لكي يعرفوا الخلل، ويشمروا عن ساعد الجد، ويبدأوا عملية التقويم، وجبر ما انكسر، والنهوض من السقطة وهذا ما يجب علينا أن نفعله عند كل شدة.. أن نعرف إن كنا في موقف ابتلاء أم في موقف عقوبة؟ لأن الفرق ما بين الموقفين عظيم.

***

7- العبادة

والعبادة في الإسلام ليست الشعائر التعبدية من صلاة وصوم وزكاة وحج فقط.. بل إن كل نشاط يؤديه المؤمن يدخل في باب (العبادة) مادام يبتغي بهذا النشاط وجه الله.. ولقد سبق الحديث عن أن كل ما في هذا الوجود خاضع لسنن ربانية صارمة لا تتخلف.. وقد اقتضت مشيئة الله سبحانه، أن تكون العبادة التي افترضها على عباده جزءا من تلك السنن، التي لا تستقيم حياتهم إلا بها، فقد ركب الله عز وجل جبلة الإنسان من مركبين اثنين هما:

- الجسد، والنفس.

وأخضع كلا من هذين المركبين لسنن ضرورية لا بد من مراعاتها حتى يصلح أمرهما.. فالجسد يحتاج إلى طعام وشراب ونوم وتزاوج، وحاجات أخرى عديدة حتى يستطيع المحافظة على حيويته ونشاطه، وحتى يستطيع التناسل والتكاثر للإبقاء على نوعه.. وهذه كلها سنن لازمة لوظائف الجسد، فإن أصابها أي اختلال، أصيب نظام الجسد بالاختلال والاضطراب.. وربما الموت والهلاك.

وكذلك هي النفس البشرية.. فهي تخضع لمجموعة من السنن التي لا غنى عنها، حتى تحيا هذه النفس حياة سوية بعيدة عن الخوف والقلق والشقاء وشتى أنواع الاضطرابات النفسية.. وكما أن الإخلال بالسنن، التي يخضع لها الجسد يؤدي إلى اختلال وظائفه، فكذلك الإخلال بالسنن التي تخضع لها النفس البشرية يؤدي إلى اختلال أكيد في سلوكها، وفي استقرارها النفسي.. وقد حذر القرآن الكريم مرارا من الغفلة عن السنن التي تصلح أمر النفس؛ لأن هذه الغفلة توقع المرء في الشقاء لا محالة.. ومن الآيات البليغة، التي دلت على ذلك قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف: 36) فالغفلة عن ذكر الله وعبادته، تفتح الباب للشيطان، لكي يوسوس في النفس، ويعكر عليها صفوها وهدوءها، ويوقعها تحت وطأة القلق والهم والحزن..

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (طه: 134 – 136) ، فإن سنة الله هذه تقتضي أن تصبح حياة الإنسان حافلة بالضنك والتعب والنصب، حين يغفل عن ذكر الله أو عن عبادته، وهذه سنة ربانية ماضية في الناس إلى يوم القيامة.

هذا وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى أن العبادات المختلفة.. من صلاة وصيام وذكر.. تؤدي بالنفس البشرية إلى السمو، وتترفع بها عن الدنايا، وترقى بها إلى مراتب الفلاح والنجاح، كما قال تعالى: (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) (العنكبوت: 45) وقال كذلك: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الأعلى: 14 – 15) فالزكاة والذكر والصلاة وشتى العبادات.. سبل إلى الفلاح والسكينة وراحة البال.

***

ومن هنا يظهر أن العبادات في الإسلام ليست مجرد شعائر، تقام للتقرب إلى الله فحسب، بل هي أيضا سنن لازمة للكيان البشري، حتى يستكمل وظائفه على الوجه الأكمل، ودليل هذا أن الكيان البشري سرعان ما يصاب بالتفسخ والاضطراب إذا ما امتنع عن القيام بالعبادات المفروضة عليه.. وها نحن اليوم نرى أمراض النفس وقد تفشت بصورة مروعة في كثير من بلدان العالم، التي حادت عن منهج الله، وانقطعت عن العبادة.. حتى باتت الأمراض النفسية فيها تشكل أوبئة خطيرة تهددها بالفناء.

ولا غرابة في ذلك، فإن الإنسان حين يغفل عن عبادة ربه، فإنما هو يغفل عن سنة أساسية، لا يمكن أن تستقر حياته إلا بها.. فكما أن الإنسان الذي يمتنع عن الطعام والشراب، لا يلبث أن تتدهور صحته وتخور قواه.. فكذلك الذين يمتنعون عن العبادة، فإن نفوسهم لا تلبث أن تضعف وتخور.. ثم تموت.. وإذا بهم (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النحل: 21) حتى وإن قاموا وقعدوا، وتكلموا وتنفسوا، وظنوا أنهم من الأحياء.

وهكذا حال المؤمنين.. فحين يدرك المؤمن أن أعماله كلها عبادة، فإنه يصبح حريصا على التزام جانب الصواب من أموره كلها، بحيث توافق سنة الله التي سنها لعباده الصالحين.. وبهذا يكون المؤمن قد أدرك

معنى الإحسان، الذي أشار إليه الهادي البشير صلوات الله وسلامه عليه حين سأله جبريل عليه السلام عن (الإحسان) فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

***

8- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية

.. عندما تناولنا بالبحث خصائص السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، خرجنا من ذلك بنتيجة ذات أهمية خاصة، وهي أن لكل أمر في هذا الوجود سنة مخصوصة، لا يتم إلا من خلالها، ولا يمكن أبدا أن يتم بغيرها من السنن.

وقلنا: إننا كلما أردنا تحقيق هدف من الأهداف، علينا أولا أن نعرف بالتفصيل طبيعة السنة، التي تتعلق بهذا الهدف..

وقلنا كذلك: إن اجتهادنا في تحقيق أهدافنا يجب أن يتوجه أولا، وقبل أي شيء آخر، نحو معرفة تلك السنة.. حتى إذا عرفناها معرفة يقينية، أصبح لزاما علينا أن نأخذ بها، وأن نلتزم بمعطياتها، ولا يجوز لنا أبدا – بعد ذلك – أن نختلف حول الموضوع المتعلق بهذه السنة.. لأن اختلافا من هذا القبيل هو سبيل أكيد للفشل الذريع.

وتقودنا هذه النتيجة إلى مناقشة قضية الاجتهاد في الشريعة الإسلامية.. ونبدأ بإيراد مثالين اثنين نعرضهما كمدخل لهذا الموضوع، وهما تركيب الماء وإنجاب الأطفال:

فنحن نستطيع الحصول على الماء بعدة طرق، ومنها إجراء تفاعل كيميائي بين عنصري الهيدروجين والأكسجين، كما نستطيع الحصول على الماء من حرق بعض المواد العضوية، حيث ينتج عن هذا الاحتراق الماء وغاز الكربون، ومواد عضوية أخرى، وهناك طرق أخرى للحصول على الماء، وهذه مسألة مادية بحتة لنا الحرية الكاملة فيها، فلا فرق ولا ضير في أن نحصل على الماء بأية طريقة من تلك الطرق، مادام الأمر متروكا أصلا لاجتهادنا، فهذا الأمر وأمثاله يدخل تحت عنوان (أنتم أعلم بأمور دنياكم) كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي سنعود إليه بعد قليل.

وأما المثال الآخر، فهو إنجاب الأطفال، فالجنين البشري يمكن أن يتخلق بإذن الله عندما تلتقي نطفة الرجل ببيضة المرأة، وهذا الالتقاء يمكن أن يتحقق بطرق عديدة، منها الزواج الشرعي، المحكوم بالكتاب والسنة، ومنها الجمع بين نطفة الزوج وبيضة الزوجة في أنابيب الاختبار، ومنها كذلك الزنا..

غير أن مسألة الإنجاب ليست كمسألة الحصول على الماء، فإن الإنجاب محكوم بمجموعة من الأحكام الشرعية المعروفة، ولم يترك لاجتهادنا واختيارنا، وأما تركيب الماء فليس محكوما بشيء من تلك الأحكام.. مما يعني أن الشريعة الإسلامية وضعت ضوابط للتعامل مع مسائل الحياة المختلفة، بحيث يمكن تقسيم هذه المسائل إلى قسمين:

1 – مسائل لا يجوز الاجتهاد فيها، بل يجب التزام الأحكام الشرعية التي وردت بخصوصها وتضم هذه المسائل كل ما ورد فيه نصوص شرعية، ومن الأمثلة على هذه المسائل: الصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، وتحريم الجرائم كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر، وما ورد فيها من عقوبات مقدرة مما هو معروف بالقرآن الكريم أو السنة النبوية.

2 – مسائل يمكن الاجتهاد فيها.. إما لعدم ورود نص فيها، وإما لأنه ورد فيها نص ظني الدلالة، أو ظني الثبوت، أو ظني الثبوت والدلالة معا.. فهذه المسائل يجوز الاجتهاد فيها للوصول إلى حكم شرعي، أو لمعرفة السنة التي تحكمها..

والاجتهاد (لغة) : بذل الجهد، واستفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور، سواء أكان حسيا كالمشي، أو كان معنويا كاستخراج حكم أو نظرية عقلية أو شرعية أو لغوية.. الخ. والاجتهاد (شرعا) : هو بذل الفقيه أقصى الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، علما بأن الأدلة التي يجتهد فيها هي: القرآن والسنة، ويتفرع عن هذين المصدرين الأساسيين مصادر أخرى كالإجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان والعرف والعادة وسد الذرائع .. إلخ.

وقد دلت النقول الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يجتهد في شئون الحياة المختلفة ويرى فيها رأيا، حتى إذا تبين له أن المصلحة تتطلب غير ما رأى، رجع صلى الله عليه وسلم عن رأيه، وفعل ما هو خير.. ومن ذلك اجتهاده في أمور الحرب، وفي بعض الشئون الأخرى، كما كان من أمره في

حادثة تأبير النخل المشهورة: (عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون، فقال: لو لم تلقحوا لصلح، قال فخرج شيصا. فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال رسول الله عليه وسلم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذا الحديث قد أسيئ استخدامه كثيرا وبخاصة من قبل الذين لا يدركون مقاصد الشريعة إدراكا صحيحا، والذين في أنفسهم مرض، ويريدون أن يتخففوا من عهدة التكليف، أو الذين يرغبون في تعطيل بعض النصوص اعتمادا على هذا الحديث.. علما بأن ذكر هذه الحادثة قد ورد في أكثر من حديث بصيغ مختلفة تبين بوضوح ما قصد إليه النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: (أنتم أعلم بأمور دنياكم.) (فعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قدم الني صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل، يقول:) (يلقحون النخل. فقال صلى الله عليه وسلم : ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه. قال صلى الله عليه وسلم : لعلكم لو لم تفعلوا لكان خيرا. فتركوه. فنفضت (أو فنقصت) قال: فذكروا ذلك له، فقال صلى الله عليه وسلم : (إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأيي فإنما أنا بشر)) وواضح من هذا النص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرق بين ما هو وحي من الله عز وجل ، لا يصح للمسلمين أن يتجاهلوه، أو يميلوا إلى غيره عنه، وبين ما هو من اجتهاده ورأيه في الشئون الدنيوية، وهذا متروك للمسلمين ليأخذوا به، أو يعدلوا عنه إلى غيره إذا تبين لهم أنه أصلح.

وما يهمنا من هذا العرض، الحديث عن الأمور التي فيها مساغ للاجتهاد، ومادامت حكمة المولى عز وجل قد قضت أن يكون لكل حادثة سنة مخصوصة، فإننا مكلفون ابتداءً بالاجتهاد لإصابة هذه السنة، ومأمورون كذلك أن نجند كل طاقاتنا العقلية والمادية في سبيل كشف السنة المتعلقة بالأمر الذي نجتهد فيه.. حتى إذا تبينت لنا هذه السنة يقينا، وجب علينا الالتزام بها، وعدم الحيدان عنها، ولا مخالفتها؛ لأن ذلك يجلب الضرر كما أسلفنا، وينتهي بنا إلى الفشل الأكيد.. ونزيد على هذا أن الاجتهاد مجددا في أمر عرفت سنته يعد تفريطا بالوقت، وإهدارا للطاقات من غير جدوى.

والسؤال الذي يبرز أمامنا الآن هو: كيف نتعامل مع المشكلات التي فيها مسوغ للاجتهاد؟

ونقول: إن هذه القضية قد شغلت الفكر الإسلامي طويلا، وتصدى لها أئمة علماء، ومفكرون أفذاذ، وضعوا القواعد والشروط والضوابط للاجتهاد، بناء على أصول شرعية معتبرة، لكن القضية – مع هذا – ظلت قائمة، وظل كثير من المسائل الفقهية وغير الفقهية محل اختلاف، بل وصل هذا الاختلاف في بعض الحالات إلى حد مساواة النقيض بنقيضه.

ونحن لا ندعي في هذا البحث المقتضب أننا قادرون على إنهاء قضية الاختلاف، وإنما الذي نريد التنبيه إليه أن الاجتهاد في الشريعة الإسلامية انطلق أساسا من النصوص، وظل البحث يدور في فلك هذه النصوص دون الإفادة من ربطها بمفهوم السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه، ونعتقد أنه لو أخذت السنن في الاعتبار عند تناول القضايا المختلفة، لكان ذلك بمثابة ضابط إضافي، يضبط وجهة الاختلاف، ويضيق – في الوقت نفسه إلى حدٍ بعيد – مجال التنازع والاختلاف.

وهناك الكثير من القضايا الفقهية التي وقع فيها الخلاف قديما بين المذاهب المختلفة، وما يزال الخلاف فيها واردا حتى يومنا الحاضر، وما يزال بعض القضاة يحكمون بموجبها، على الرغم من أن السنن التي تخضع لها هذه القضايا باتت معروفة لأهل الاختصاص.. وأذكر على سبيل المثال: أنهم اختلفوا في تحديد أطول مدة لحمل المرأة، فقال بعضهم: (إن أقصى مدة الحمل أربع سنين، وبه قال الشافعي ، وهو المشهور عن مالك ، وروي عن أحمد أن أقصى حمل مدته سنتان، وروى ذلك عن عائشة ، وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة ، وقال الليث : أقصاه ثلاث سنين، وقال عياد بن العوام : خمس سنين، وعن الزهري قال: قد تحمل المرأة ست سنين، وسبع سنين، وقال أبو عبيد : ليس لأقصاه وقت يوقف عليه) .

وكان هذا الاجتهاد نتيجة للمعارف الموجودة في عصرهم واستقراء أحوال زوجاتهم وأخواتهم. (وقد ذكر عصام غانم في كتابه Islamic Medical Jurisprudence صفحة 44: (أن أحد القضاة حكم لامرأة طلقت بأن ولدها الذي أنجبته بعد أربع سنوات من طلاقها حكم به لزوجها، وكذلك حكم لأختها التي ولدت بعد مرور خمس سنوات على وفاة زوجها).

وهذا يعني أننا ما نزال حتى اليوم نتجاهل حقائق العلم، ولا نلتفت لما كشفه لنا من سنن واضحة بينة، فيما يختص ببعض القضايا الحيوية، التي تترتب عليها أحكام شرعية بالغة الأهمية، فقد ثبت بالدليل الطبي

القاطع أن مدة الحمل الطبيعية هي نحو 280 يوما محسوبة من بدء آخر حيضة حاضتها المرأة، ومن ثم فإن الجنين لا يعيش داخل الرحم أكثر من هذه المدة، وبخاصة أن المشيمة التي يتغذى الجنين ويتنفس عن طريقها لا تعيش لأكثر من أيام قليلة بعد مدة الحمل المعتادة؛ لأنها تبدأ بعد تمام مدة الحمل بالتنكس، وتضعف وظائفها، ولا تعود قادرة على الوفاء بحاجات الجنين، فإذا لم تحدث الولادة في الموعد المقرر، ماتت المشيمة، وانقطع الغذاء والأكسجين عن الجنين، وهذا يؤدي إلى موته المحقق.

وأذكر أيضا مثالا آخر عن قضية أخرى ما يزال الجدال حولها محتدما على الرغم من فهم السنن الربانية التي تخضع لها، وهي إثبات مطالع الأشهر القمرية، وبخاصة منها مطالع رمضان وشوال وذي الحجة، لتعلق هذه الأشهر بالصوم والفطر والحج.. فما يزال السواد الأعظم من فقهائنا يصرون على ضرورة الرؤية العيانية للهلال، ويرفضون الأخذ بالحسابات الفلكية تمسكا بظاهر الآية الكريمة (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) (البقرة: 185) ، وما جاء في الحديث الصحيح (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما) مما أدى في مناسبات عديدة إلى حدوث اختلاف عجيب في مواقيت العبادات المرتبطة بالأشهر المذكورة، حتى وصل الأمر مرة أن بعض المسلمين صاموا رمضان ثمانية وعشرين يوما وفي مرة أخرى كان فارق التوقيت بين بلدان إسلامية وأخرى ثلاثة أيام في الصوم والفطر، وهذا ما لا يمكن تبريره أبدا، إذا المعروف ميلاد القمر في كل شهر، واحد لا يتعدد.

ومما لا جدال فيه أن هذه الاختلافات لم يعد لها ما يبررها بعد أن أصبحنا اليوم على معرفة تامة بالسنن التي تحكم دوران الأرض والشمس والقمر، وبتنا قادرين –بفضل الله– على تحديد ميلاد القمر بدقة متناهية محسوبة بأجزاء الثانية.

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن نحسم الخلاف في مثل هذه القضايا المختلف فيها، بأن نلتفت إلى السنن التي تحكمها، وأما القضايا الأخرى التي لم نتوصل بعد إلى معرفة سننها، فيمكن بشئ من الجهد المخلص أن نكشف سننها، ونفهم أبعادها، وبذلك نزيل الكثير من أسباب الخلاف حولها.. ونعتقد أن مثل هذا التناول لقضايانا الاجتهادية سيكون أكثر جدوى من البحث النظري المجرد الذي يتعامل مع المشكلات بمعزل عن واقع الحياة ومعطيات العلم؛ لأن هذا الواقع خاضع لسنن محكمة، لا يجوز تجاهلها بحال من

الأحوال.. وتجاهلها يجعل بعض اجتهاداتنا في وادٍ، وواقع الحياة والمجتمع في وادٍ آخر، ويجعلنا من ثم منفصلين عن حركة التاريخ والحياة وصنع القرار

***

هل تخضع مشكلاتنا للسنن؟ .. وما من شك أن حياة الإنسان زاخرة بالمسائل المعقدة، التي يتعذر في بعض الحالات إيجاد حلول مثالية لها، ولكن مع هذا لا يصح التسليم بهذه الحقيقة وكأنها واقع مطلق لا يمكن تجاوزه؛ لأن مثل هذا التسليم يدفع مشكلاتنا للدخول في متاهة واسعة مكتوب على بابها (مستحيل)، وعندئذ سنجد أنفسنا مكتوفي الأيدي، عاجزين، لا رغبة عندنا في البحث عن حل.. أي حل وكان بإمكاننا أن نفعل شيئا أفضل من هذا لو أننا آمنا بوجود حل للمشكلة، التي بين أيدينا، وآمنا بوجود سنن لهذه المشكلة يمكن كشفها وتسخيرها في سبيل إيجاد الحل.

ولقد ناقش الأستاذ (جودت سعيد) هذه القضية بكثير من التفصيل في كتابه القيم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومما قاله في ذلك: (إن العقل البشري يتخذ أحد موقفين إزاء المشكلات، فهو إما أن يفترض أنها تخضع لقوانين، ومن ثم يمكن أن تخضع للسيطرة عليها وتسخيرها، وإما أن يفترض فيها أنها لا تخضع لقوانين، أو يمكن كشف قوانينها.. وبين هذين الموقفين مواقف متعددة يتفاوت فيها القرب من أحدها والبعد عن الآخر.. وإن لكل من الفرضيتين نتائج عملية تظهر في مواقف البشر وسلوكهم بصورة متفاوتة، على حسب الخضوع لأحد الموقفين) .

***

مشروع عمل .. ويمكن من خلال ما قدمناه أن نخرج بتصور مبدئي يعد (مشروع عمل) تحدد فيه السمات الأساسية لأسلوب التعامل مع المشكلات والأزمات، التي نرى فيها مسوغا للاجتهاد، وذلك على النحو التالي:

1 – أن نؤمن إيمانا راسخا بأن المشكلة التي بين أيدينا (أيا ما كانت هذه المشكلة) قابلة للحل، فمثل هذا النظر إلى المشكلة، يجعلنا نتعامل معها بصورة إيجابية تستمد عزمها من أملنا بالوصول إلى حل ما، في نهاية المطاف.

2 – أن ندرك بأن لكل أمر أو حادث سنة مخصوصة تحكمه، لا يتم إلا من خلالها، ولا يمكن أبدا أن يتم على تمامه بغيرها من السنن.

3 – أن نعرف المشكلة التي هي موضوع بحثنا، ونجمع المعلومات المتعلقة بها، حتى نحيط بالمشكلة من جوانبها جميعا.

4 – نصنف المعلومات التي تجمعت لدينا، ثم نعهد لأهل الاختصاص بدراستها، عملا بالقاعدة الأصولية التي أرستها آيات كثيرات من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يستنبطونه مِنْهُمْ وَلَوْلا فضل اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا) (النساء: 83) .. فإن كانت المشكلة اقتصادية عهدنا بها إلى أهل الاقتصاد، وإن كانت سياسية أوكلنا أمرها إلى أمراء السياسة والحكم، وإن كانت طبية استشرنا الأطباء في علاجها، وإن كانت حربا أو سلما استنفرنا رجال الحرب وقوادها ليروا فيها رأيهم.. وهكذا. وكل ذلك مشروط بالتوجيه الرباني الداعي للسير في الأرض، والنظر في السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، على أمل أن نصل لمعرفة السنة التي تحكم المشكلة.

5 – فإذا ما علمنا السنة التي تحكم المشكلة، نكون قد توصلنا إلى الحل المثالي لها، وعندئذ يصبح لزاما علينا أن نراعي هذه السنة، ما دمنا راغبين في الحل.

6 – وأما إذا لم نستطع أن نعرف السنة المتعلقة بالمشكلة، فإن علينا مواصلة البحث والدراسة، وتبادل الآراء، من غير تعنت يشق الصف، ويعمق النزاع الذي يؤدي حتما إلى الفشل، كما قال تعالى: (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال: 46) .. وإن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نظرة عميقة في هذه المسألة، إذ قال: (ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد، كما قال تعالى: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (آل عمران: 19) ،

فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود اجتهاد سائغ، بل مع نوع بغي، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال في الفتنة، وكان ذلك من أصول السنة) .

والخلاصة.. إن البحث في مشكلاتنا المعاصرة على ضوء سنة الله في الخلق، يجب أن يكون أصلا ومنطلقا للخروج من أزمتنا الحضارية، وهذا المنهج في الحل ينسجم مع المنهج الرباني، الذي فطر الله عليه أمور خلقه، وهو الطريق الأقوم لتوحيد الفكر، الذي يحقق للأمة وحدتها وتماسكها.. ومادام الأمر كذلك، فإن واجبنا اليوم تركيز اجتهادنا في بيان سنن الله، وتجنيد طاقاتنا المختلفة في هذا الاتجاه، بدل الاستمرار في إهدارها بالبحث النظري المجرد الذي كثيرا ما يجعل الاجتهاد يدور في ساحة غير ساحته.

***

9- التغيير الاجتماعي

رأينا في فصل سابق من هذه الدراسة أن سنن الله في الخلق تتصف بالعموم والشمول، وأنها لا تحكم عالم المادة فحسب، بل تحكم كل ما في هذا الوجود من مخلوقات، وكل ما يجري فيه من أحداث.. ومن ذلك حياة المجتمعات البشرية، التي تخضع كذلك لسنن صارمة مطردة، لا تتخلف نتائجها عن أسبابها.

وقد بين الله عز وجل في محكم تنزيله السنن الأساسية، التي على نهجها تمضي سيرة المجتمعات، فتسمو أو تنحط أو تبيد.. وقد كان لهذا التوجيه الرباني الحكيم تأثير عظيم في تكوين الأمة الإسلامية منذ نشأتها، فقد أولى المسلمون منذ بداية الدعوة جل اهتمامهم لتلك السنن، وكانوا يسترشدون بها في شئون حياتهم المختلفة، مما أدى بالنتيجة إلى تماسك المجتمع الإسلامي الوليد حينذاك، وأدى كذلك إلى ترسيخ المفاهيم الحضارية في كل المجتمعات، التي دخلها الإسلام بعد ذلك.

ويُعد العلامة (ابن خلدون) صاحب الفضل الأكبر في وضع الأصول الأولى لعلم الاجتماع، إذ كان من أوائل الدارسين الاجتماعيين، الذين أقاموا دراساتهم على أساس من فهم السنن الاجتماعية، وقد استطاع ابن خلدون بفضل ثقافته القرآنية العميقة، واطلاعه الواسع على التاريخ، أن يعرض في (المقدمة) التي كتبها لدراسته التاريخية عددا من السنن الاجتماعية بأسلوب علمي موضوعي.

وبدءا من دراسات ابن خلدون، بدأ علماء الاجتماع يلتفتون إلى دراسة أحوال الأمم والشعوب، وفق المنهج الذي وضعه ابن خلدون نفسه، فلاحظوا أن أي تغيير اجتماعي لا يتم إلا من بعد أن تتوافر الشروط الأولية الخاصة به، وبمعنى آخر: فإن سنن التغيير الاجتماعي – شأنها شأن أية سنة من السنن الربانية – لا تتم إلا إذا توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نحدد أهم الشروط التي تتطلبها سنة التغيير، مسترشدين في ذلك بأمثلة واقعية موثوقة رواها القرآن الكريم عن الأمم الغابرة، وبخاصة منها الأمم التي بعث الله عز وجل إليها

رسله، يدعونها للالتزام بمنهج الله وشريعته – على أساس أن هذا الالتزام هو الطريق القويم لتغيير المجتمع، وتأهيله للقيام بمهمة الاستخلاف خير قيام.

أ – **الفكرة (العقيدة)** :

.. ما من شك في أن أي نشاط إنساني لا بد له أن ينطلق من (فكرة مبدئية) ؛ لأن الأفكار تبقى هي المحرك الأول لأي عمل، أو جهد يزمع الإنسان القيام به.. ومما لا شك فيه كذلك أن أي نشاط لا ينطلق من فكرة صحيحة واضحة المعالم، يكون جهدا ضائعا؛ لأنه يفتقد – على هذه الشاكلة – الضابط الذي يضبط حركته واتجاهه.

ولقد سبق أن تحدثنا عن أن الفكرة، التي يقوم عليها جهد ما، يجب أن توافق سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، حتى تكون هذه الفكرة قابلة للتنفيذ العلمي، وحتى يكون الجهد مجديا.

.. فإن لم تكن الفكرة موافقة لسنة، كانت عديمة الجدوى في التغيير الذي ننشده، وقد يترتب عليها – فوق ذلك – نتائج بالغة الخطورة. والسؤال الذي يعترضنا هنا: ما هي الفكرة المبدئية الصحيحة الموافقة لسنة الله في الخلق، والتي لا بد منها لحصول التغيير المنشود في مجتمع من المجتمعات؟

إن مثل هذا السؤال يحتم علينا الرجوع إلى سجلات التاريخ، لاستقراء الأحداث التي انتهت بولادة الحضارة الإنسانية، لنتبين (الفكرة) التي قامت عليها هذه الحضارة، كما يتحتم علينا كذلك الإصغاء إلى آراء الباحثين الذين تناولوا هذه المسألة:

* أما الرجوع إلى سجلات التاريخ فإنه يقدم لنا بما لا يدع مجالا للشك أن الفكرة الدينية أو (العقيدة)، كانت دوما هي الفكرة الأصلية، التي تولدت عنها الحضارات الإنسانية على مدار التاريخ، وأن أي استقراء منصف للتاريخ، يؤيد هذه الحقيقة تأييدا كاملا، ويكفينا مثلا أن نستعرض من خلال سور القرآن الكريم المختلفة، تاريخ الأمم الغابرة، حتى نتبين صدق هذا الأمر.. ولنا عودة على هذا الموضوع فيما بعد.

* وأما آراء المؤرخين والباحثين والمفكرين الذين تناولوا قضية الحضارات الإنسانية، فإنها تجمع كذلك على أن التغيير الاجتماعي، والنهوض الحضاري، لا بد وأن يرتكز في انطلاقته على الفكرة الدينية، ولا يكاد

ينكر هذه الحقيقة أي باحث منصف، بما فيهم الباحثون الذين كانت لهم مناهجهم الخاصة في تناول القضية، فحتى هؤلاء لم يسعهم إلا الاعتراف بتأثير الفكرة الدينية في تكوين الحضارات، ومنهم –على سبيل المثال– المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) الذي أقام نظريته في تفسير التاريخ، ونشوء الحضارات، على أساس عامل التحدي الجغرافي، فإن هذا المؤرخ في مواضع عديدة من دراسته، وقف يؤكد أهمية وتأثير الفكرة الدينية في استيلاد الحضارات، ومما كتبه في هذا: ولا يسع كاتب هذه الدراسة إلا أن يعترف بقناعته بهذا الرأي، الذي هو أميل إلى مناصرة فكرة دور العقائد الدينية في مجريات التاريخ.. فإذا ما ألقينا ببصرنا على الحضارات، التي ما برحت قائمة حتى يومنا الحاضر، نجد أنه يكمن وراء كل منها نوع من العقيدة الدينية العالمية.. وعلى هذا النحو تصبح العقيدة الدينية جزءا من نظام الاستيلاد الحضاري..

والحقيقة أن توينبي لم يكن أول ولا آخر الذين تحدثوا عن تأثير الدين في النهضة الحضارية، فقد تحدث قبله وبعده كثيرون حول هذا الموضوع، وقد أورد (مالك بن نبي) رحمه الله في كتابه شروط النهضة، آراء عديدة في هذا الشأن، ومنها مثلا رأي المؤرخ (هنري بيرين) صاحب كتاب (محمد وشارلمان) الذي قارن فيه بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وبين دور الديانتين في بعث هاتين الحضارتين.

كما نقل (مالك بن نبي) عن المفكر (هرمان دي كيسرلنج) في كتابه (البحث التحليلي لأوروبا) قوله: (وكان أعظم ارتكاز حضارة أوروبا على روحها الدينية) وقوله كذلك (إن الروح المسيحية ومبدأها الأخلاقي هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوروبا سيادتها التاريخية).

ويخلص مالك بن نبي –بعد استعراضه لآراء عديدة– إلى القول: (فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في أية حضارة من الحضارات عن أصلها الديني، الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمة نواة الحضارة البرهمية.. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي – على الأقل – تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة، إلا حيث يمتد بصره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما

يكتشف حقيقة حياته كاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء، التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها..

والواقع أن الحضارة بمعناها الشامل، وبمعناها الإنساني، الذي يرمي إلى رفعة الإنسان والسمو به نحو الأخلاق الفاضلة، والحياة الكريمة، لا يمكن أن تتحقق بغير دفعة روحية تستمدها الحضارة من الدين.. ولكن أي دين؟ أهو الدين بالمعنى العام المغبش الذي أشار إليه فالتر شوبرت ؟ أم هو الدين بالمعنى الغيبي الذي ألمح إليه مالك بن نبي ؟ أم هو الدين بالمعنى الإسلامي الذي جاءت به الأديان السماوية جميعها؟

إننا بالعودة إلى الواقع، واستقراء الأحداث، وفق التوجيه الرباني (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل: 69) نجد أن نوعا من المدنية (وليس الحضارة) قد تقوم أحيانا على أساس المبدأ العام، الذي نوه به فالتر شوبرت، وقد تقوم أحيانا وفق المعنى الغيبي، الذي تحدث عنه مالك بن نبي.. ولكن مثل هذه المدنية مآلها إلى الانقراض، وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على هذا، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس: 13) .

فهذه الأمم التي تحدث القرآن عن سيرتها للعبرة، كان لها نوع من المدنيات التي لم تستطع الرقي إلى أفق الحضارة السامي؛ لأنها لم تأخذ بمنهج الإيمان، ولم تجعله هاديا لها للوصول إلى ذلك الأفق.

ونخلص من هذا العرض الموجز، إلى أن الأساس الأبقى الذي يمكن أن تقوم عليه الحضارة الإنسانية الحقيقية، هو العقيدة الدينية بلا جدال، لأن هذا الأساس يستمد مقومات قوته وبقائه من خالق الكون والإنسان، وهو سبحانه أعلم بما يصلح أمر الكون والإنسان.

فالإيمان بالله إذن شرط أولي لبسط النعمة، أو بالمصطلح المعاصر (الحضارة) وفي هذا يقول رب العزة سبحانه (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: 96) وأما الحفاظ على هذه النعمة (أو الحضارة) فمرتبط بالصلاح، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء: 105) .

ولسيد قطب رحمه لله قول بليغ حول أثر الدين في تكوين الحضارة حيث قال: (حين ينهض الإنسان بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق، ويصنع المادة الخام، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات، التي حصل عليها في تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنع هذا كله (ربانيا) يقوم بالخلافة – على هذا النحو عبادة الله.. يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة) .

إذن.. فإن الفكرة الدينية عامل أساسي في التغيير الاجتماعي نحو الحضارة، ولكن بشرط أن تكون هذه الفكرة نابعة من دين سماوي خالص، لم ينله تشويه ولا تحريف.. وما دام الأمر كذلك، فإننا لا نجد من بين الديانات السماوية دينا مرشحا اليوم للنهوض بالبشرية سوى الإسلام؛ لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حافظ – بفضل الله على صفاء عقيدة التوحيد، كيوم نزلت أول مرة من السماء إلى الأرض، والسر في هذا أن الله عز وجل قد تكفل بحفظ كتاب الإسلام العظيم، فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: 9) .. وسوف يبقى الإسلام بهذا الكتاب الكريم، هو المصدر الوحيد القادر –دوما وأبدا– على النهوض بالبشرية إلى آفاق الحضارة السامية.

ب – الإنسان:

.. ويقدم لنا القرآن الكريم أدلة عديدة، تدل على أن دعوة التغيير تبدأ عادة على يدي رجل فرد، وبعد ذلك يأخذ الناس بالالتفات حول هذا الرجل صاحب الدعوة، ليعمل هو وهم على إحداث التغيير المنشود.

ومع أن هذه هي القاعدة في التغيير، إلا أننا نلاحظ – من خلال الشواهد القرآنية نفسها – وجود استثناءات لهذه القاعدة، ومن ذلك مثلا ما نلمسه في قصة أصحاب القرية التي ورد ذكرها في سورة يس: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) (يس: 13 – 14) فقد أرسل الله عز وجل إلى أهل تلك القرية ثلاثة من رسله، ولكن القوم كذبوهم وردوهم ردا قبيحا، ولم يستجيبوا لدعوتهم.. وبينما هم يجادلون رسل الله جاءهم رجل.. رجل نكرة، لكنه رجل صالح: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ

لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (يس: 20 – 21) واستمر الرجل يدعو القوم إلى الإيمان، ويرغبهم فيه، ويحذرهم من عذاب الله، الذي يتربص بهم، ويبين لهم ما هم فيه من ضلالة، ولكنهم لم يسمعوا له، ولم يستجيبوا.. ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوا الرجل أن قتلوه، وانتهى أمره في لحظات، كما بدأ في لحظات، لكن حكاية القرية لم تنته عند هذا الحد، بل تنزل أمر الله ليغير حال القرية عن بكرة أبيها: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هم خَامِدُونَ) (يس 28 – 29) فكأن دعوة الرجل الصالح، كانت الإنذار الأخير من رب العالمين لأهل تلك القرية، التي استؤصلت من على وجه الأرض، وباستئصالها تم التغيير المنشود.

ولقد يعترض معترض هنا فيقول: وأي تغيير هذا الذي انتهى بالدمار؟

فنقول: هو تغيير لا شك في ذلك، هو تغيير بالمعنى الأشمل للتغيير، فمادام أهل القرية قد رفضوا دعوة الهداية والرشاد، وأصروا على كفرهم، وعلى انحرافهم عن الفطرة الربانية – على الرغم من الدعوات المتكررة، التي جاءتهم – فقد أصبحوا بموقفهم ذاك يمثلون أزمة، أو داءا مزمنا بالنسبة للمجتمع البشري، ومثل هذا الداء المزمن لا ينفع فيه غير الاستئصال الجراحي.. وهذا ما كان فعلا..

وليس هذا المثال الذي قدمناه فريدا في التاريخ البشري، ففي القرآن الكريم أمثلة كثيرة نطالعها في الآيات، التي تحدثت عن قصص الرسل، الذين لم يؤمن معهم أحد من أقوامهم، أو آمن معهم نفر قليل، فانتهى أمر تلك الأقوام إلى الهلاك (قوم عاد، قوم نوح، قوم ثمود، قوم لوط.. وغيرهم كثير) .

إذن كيف يكون التغيير الآخر، التغيير الذي لا ينتهي بالهلاك، بل يتوج بنهوض الأمة إلى آفاق الحضارة الإنسانية السامية؟

وللجواب عن هذا السؤال، نعود من جديد إلى رحاب القرآن الكريم، لنجد أن مثل هذا التغيير الطموح لا يمكن أن يتحقق، أو يكتب له النجاح، ما لم تستجب له نفوس الغالبية من الناس؛ لأن المجتمع – من هذه الوجهة – يشكل في مجموعه جسدا واحدا، لا يصلح إلا أن تصلح معظم أعضائه، ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن أنبياء الله – عليهم السلام – كانوا دوما يتوجهون بدعواتهم إلى أفراد المجتمع كافة بلا

تمييز، من أجل هذه الغاية أملا في كسب العدد الكافي منهم إلى صف الدعوة؛ لأن هذا العدد أمر لازم حتى يتغير حال المجتمع.

وربما كانت دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هي الدعوة الوحيدة، التي استطاعت أن تحل المعادلة الصعبة، ونعني بها كسب العدد الكافي من الناس إلى صفها، في وقت قياسي، على الرغم من العوائق الهائلة التي اعترضت سبيلها.. فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يقارب ثلاثة عشر عاما في مكة ، يدعو قومه للإيمان بدعوة التوحيد، باذلا في ذلك أقصى جهده، فلم يؤمن بدعوته إلا قليل من الناس، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ييأس، ولم يقنط من رحمة الله، وتأييده ونصره، فواصل جهاده، حتى قيض الله عز وجل رجالا أتوا في موسم الحج من يثرب إلى مكة، فالتقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، ثم عادوا إلى قومهم يدعونهم للإيمان بالدعوة الجديدة، فوجدوا منهم قبولا حسنا، على النقيض مما كان في مكة التي وقف سادتها حائلا عنيدا بين الناس والدعوة.

وهكذا فشا أمر الإسلام في يثرب، وتهيأ المجتمع للمرحلة التالية، فأذن الله لرسوله بالهجرة، فهاجر هو وأصحابه من مكة إلى يثرب، (التي تغير اسمها منذ ذلك الوقت فأصبحت تدعى المدينة، وكان هذا التغيير أحد بوادر التغيير في المجتمع الوليد) وواصل المؤمنون في المدينة جهادهم ودعوتهم، حتى آمن بالدعوة خلق كثير، وترسخت دعائم الإسلام، وتحول مجتمع المدينة من الكفر إلى الإيمان، وبات الإسلام هو صاحب الكلمة في المجتمع، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائد والحاكم في هذه الدولة الوليدة، التي كانت بحق نواة الحضارة الإسلامية، التي بدأت أنوارها تشع على الدنيا منذ ذلك التاريخ.. ومنذ أن تم التغيير في مجتمع المدينة ، وتبعه التغيير في مجتمع مكة بعد الفتح ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. منذ ذلك الحين بدأت معالم التغيير الحضري تظهر وتنتشر في أرجاء الأرض.. ومما لا ريب فيه أن هذا الفتح المؤزر، وهذه الثمرة الطيبة لم تكن لتتحقق، لولا ما توافر للدعوة من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أعطوا أقصى ما يستطيعون من أنفسهم وأموالهم وأرواحهم..

.. فبمثل هؤلاء الرجال يتم التغيير.. رجال لم يكتفوا بالالتفاف حول صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، بل جاهدوا أنفسهم حتى تتغير وتتلاءم وطبيعة هذه الدعوة، وهذا ما حصل فعلا، فقد كان نطق الواحد منهم بالشهادتين بمثابة ولادة جديدة له، فكان على أعتاب الدخول في الإسلام، يخلع عنه كل

ماضيه، ليرتدي حلة الإسلام، التي تصوغ نفسه صياغة ربانية تنسجم مع الفطرة، وتتلاءم وطبيعة الدعوة الجديدة.. وبمثل هذا التغيير، الذي حصل في نفوس المسلمين الأوائل، حصل التغيير الحضاري، الذي لم تشهد البشرية مثيلا له، لا قبله ولا بعده.. والسبب أن هذا التغيير يساير السنة التي فطر الله عليها أمور خلقه، والتي بينتها الآية الكريمة في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:11) ، فعندما تغيرت تلك النفوس بالإيمان، غير الله ما بها من جاهلية، وخلصها من ربقة القبلية الضيقة الشقية، إلى آفاق الأمة المتوحدة المتكاملة، ونقلها من مستنقع التباهي بالأنساب والأحساب، إلى روضة الأخلاق الإنسانية الوارفة.

ج - الزمن:

.. وبعد أن يتهيأ للدعوة فكرة صحيحة، (أو عقيدة كما قدمنا) ويتهيأ لها العدد الكافي من الناس، الذين يؤمنون بها، ويبدءون تحركهم على أساسها، يأتي دور (الزمن) باعتباره عاملا أساسيا من العوامل اللازمة لإنضاج عملية التغيير.. والملاحظة الأولى التي تستوقفنا فيما يتعلق بالزمن، أن التغيير الاجتماعي، يمكن أن يتم في بعض الحالات خلال زمن قياسي قصير، بينما يتطلب في حالات أخرى أجيالا عديدة، قبل أن يكتمل وتظهر آثاره واضحة جلية في المجتمع، ولنستعرض بعض الأمثلة القرآنية البليغة لنتبين كيف يفعل الزمن في عملية التغيير:

دعوة سيدنا نوح عليه السلام :

.. وتعد دعوة نوح عليه السلام دعوة متفردة بين الدعوات السماوية، من حيث الزمن الذي استغرقته، إذ أستغرقت ألف سنة إلا خمسين عاما، قبل أن تؤتي ثمارها، وقد استمر نوح عليه السلام طوال هذه السنين يدعو قومه إلى الإيمان، ويعمل على تغيير حالهم واستنفاذهم من الضلال، سالكا إلى ذلك شتى الطرق..

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا) (نوح : 5) .

(ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا) (نوح : 8) .

(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) (نوح : 9) .

ولكن.. دون جدوى، فقد تمسك القوم بكفرهم، وبالغوا في عنادهم، حتى جاء البيان من السماء (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مِنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (هود: 36) ، وحينئذ فقط أيقن الرسول أن القوم الذين أرسل إليهم قد فقدوا إلى الأبد القابلية للهداية، وأيقن أنهم تحجروا على حالهم، ونادى متحسرا (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح: 26 – 27) ... فالمجتمع الذي تحجر على الكفر، لا أمل أن يلد إلا فاجرا كفارا، وكذلك هي المجتمعات التي تحجرت على حال معينة، لا يمكن أن تتغير بغير الاستئصال، وهذا ما كان، فقد استجاب الله عز وجل دعوة رسوله، وأنجز له التغيير الذي أراد، فأغرق الكافرين، ونجى المؤمنين، في مشهد للتغيير، لم تشهد البشرية له مثيلا على امتداد تاريخها.

ويظهر التفرد في دعوة سيدنا نوح عليه السلام من خلال النتيجة التي انتهت إليها، فالمؤمنون الذين ثبتوا على دعوة الحق كل تلك السنوات الطويلة، أصبحوا هم سادة الأرض وعمارها، وغدوا من ثم نواة المجتمعات اللاحقة.

دعوة أصحاب القرية:

ونعني بها دعوة الرجل الصالح، الذي ورد ذكره في سورة ياسين، وقد سبق أن تحدثنا عن قصته، عند الحديث عن أثر العامل البشري في التغيير.. فقد رأينا هذا الرجل استطاع – بفضل الله عز وجل – أن يعجل بإيصال عملية التغيير إلى غايتها، خلال زمن قياسي قصير، ربما لم يزد عن بضع دقائق أو ساعات، إذ عمد إلى تأزيم الصراع الفكري مع قومه، حتى أوصله إلى الذروة الحرجة، بحيث لم يعد ثمة مجال إلا للمفاصلة، التي قلنا: إن سياق الآيات يوحي بأن القوم لم يمهلوه أن قتلوه، وكانت النتيجة أن جاء أمر الله عاجلا بعدئذ (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هم خَامِدُونَ) (يس: 28 – 29) .

مناقشة تأثير العامل الزمني على عملية التغيير

.. ونلاحظ أن القضاء الجماعي على الكفار، قد تكرر في هاتين القصتين: قصة قوم نوح، لما تأت عاجلة، كما أتت في قصة أصحاب القرية، بل جاءت بعد سنوات طويلة جدا ظل نوح خلالها يدعو قومه للإيمان بدعوة التوحيد، ولكنهم لم يؤمنوا، إلا نفرا قليلا منهم، آمنوا بالدعوة إيمانا راسخا كالجبال، وهذا الإيمان هو الذي رشحهم لاختيار الله عز وجل ، وجعلهم نواة البشرية القادمة من بعدهم.. فقد حق في ميزان الله لهذه الدعوة، التي استمرت نحوا من ألف عام تنافح أهل الشرك والكفر.. حق لها أن تسود الأرض، وأن يكون تاريخ البشرية منذ ذلك الوقت هو تاريخ هؤلاء المؤمنين ومن جاء من أصلابهم.

وأما الرجل الصالح، فلم يؤمن معه من أصحاب القرية أحد؛ لأن الزمن – على ما يظهر من السياق – لم يتح له أن يكسب أحدا إلى صف الدعوة، فانتهت دعوته من ثم بانتهاء حياته هو.. ومن هنا يمكن أن نلاحظ تأثير العامل الزمني على نتائج التغيير، فقد انتهت دعوة هذا الرجل الصالح باستشهاده وهلاك القرية من بعده، وطوى الزمان صفحة الداعية والقوم إلى غير رجعة

وأما دعوة نوح عليه السلام فقد انتهت نهاية مختلفة تماما، إذ تم بها استئصال شأفة الكفر من على وجه الأرض، وأورث الله الأرض للمؤمنين..

وتوحي هذه المقارنة بين القصتين كما حكاهما القرآن الكريم، بأن التغيير النوعي في المجتمع يتطلب فترة زمنية كافية حتى يكتمل، ويؤتي ثماره ناضجة سائغة.. وأما محاولة حرق المراحل، واستعجال التغيير، قبل استكمال شروطه وأركانه، فإنه غالبا ما يجهض المحاولة من أساسها، وينسف الشروط الأولية التي بدأت منها، وقد يحول دون توفر هذه الشروط مرة أخرى..

ولا غرو في هذا، فإن التغيير الاجتماعي يرتبط أساسا بتغيير ما بالأنفس، وفق السنة الربانية التي عنوانها (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: 11) ، ومن المعلوم أن النفس البشرية ذات تركيب معقد، ومن ثم يتطلب تغيير ما فيها شروطا كثيرة، كما أن هناك عوامل عديدة يمكن أن تؤثر في النفس، وتحول دون التغيير، ومن ذلك مثلا: تأثير الأهواء الشخصية، والنزاعات العصبية، والصراعات الفكرية.. وغيرها.

تنبيه:

غير أن مطالبتنا بمراعاة الزمن من أجل التغيير، وتحذيرنا من خطورة حرق المراحل واستعجال الثمرات، لا يعني أن نهمل العامل الزمني، ولا أن نعلل أنفسنا بأن زمن التغيير لم يحن بعد، فنقعد غير آبهين بالساعات والأيام والسنوات التي تمر.. فإن الزمن قد يفعل في عملية التغيير فعلا مغايرا لما نريد، فهو سلاح ذو حدين كما يقولون؛ لأنه – من جهة – لازم لإنضاج عملية التغيير، وبلوغها الغاية المرجوة، ولكنه – من جهة أخرى – قد يسيء إلى هذه العملية، إذا لم نستفد منه، ونصرفه بطريقة حكيمة، لا إفراط فيها ولا تفريط.. ونعود من جديد إلى رحاب القرآن.

دعوة سيدنا عيسى عليه السلام :

.. فقد قام عيسى عليه السلام بدعوة قومه للتوحيد قائلا: (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (آل عمران: 51) .. واستمر يدعوهم، ويرغبهم بالاستجابة لدعوة التوحيد، لكنهم لم يستجيبوا، ولم يؤمن منهم إلا نفر قليل ثم شاء الله عز وجل ، أن يرفع رسوله إليه، فرفعه، وظلت الدعوة محصورة في مجموعة قليلة من المؤمنين، الذين سماهم القرآن الكريم (الحواريين) .

وعندما حاول الحواريون نشر دعوتهم بين الناس، واجهوا صدا عنيفا من الحكام، الذين كانوا وقتذاك على دين الشرك، فآثر المؤمنون كتمان إيمانهم في صدورهم، وتركوا دعوتهم للزمن على أمل أن يحسم هو الموقف.. واستمرت الدعوة على هذه الحال، تنتقل من جيل إلى جيل متخفية، صامته، حتى فعل الزمان بها ما لم يكن في الحسبان، إذ انحرفت الدعوة عن خط التوحيد، وخالطتها الوثنية، ومن هنا نلاحظ ضرورة توفر شرط إضافي إلى شرط الزمان، حتى يمكن إنضاج عملية التغيير إنضاجا صحيحا من جهة، وحتى يمكن تجنب التأثير السلبي لتطاول الزمن من جهة أخرى، وهذا الشرط هو التفاعل البناء ما بين عامل الزمن، والعامل البشري، الذي سبق الحديث عنه، بمعنى أن تبقى دعوة التغيير متفاعلة في المجتمع من خلال العصبة المؤمنة، بحيث تعمل هذه العصبة على إبقاء الدعوة حية نابضة في صميم المجتمع، ولمثل هذا الهدف جاء التوجيه الرباني الحكيم (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هم الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: 104) .. فإن وجود هذه العصبة المؤمنة ضروري لضبط

برنامج التغيير، لكي تعطي كل مرحلة من مراحل العمل حقها من الوقت، دون تفريط يضيع الوقت، ويميع القضية، ويحرفها عن مسارها الصحيح، ودون إفراط باختصار الوقت وحرق المراحل واستعجال الثمرات؛ لأن هذا قد يجهض العملية إجهاضا مبرما.. وإن عمل هذه العصبة من هذه الوجهة، يشبه عمل المهندس الحاذق، الذي كلما أنجز مرحلة من مراحل البناء، قام بفحصها وتقويمها، لكي يستيقن أنها قامت وفق المخطط المرسوم، وأنها أنجزت حسب المواصفات والمعايير الفنية المعتبرة، وأنها تتماشى مع البرنامج الزمني المحدد للمشروع.

الدعوة الأنموذج

وتعد دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أنموذجا متفردا من حيث استفادتها من عامل الزمن، كما هي متفردة من الجوانب المختلفة الأخرى.. فقد استطاعت هذه الدعوة أن تحقق خلال عمرها القصير، الذي لم يتعد عقدين ونيفا من السنوات، مأثرة في التغيير مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا، وسوف تبقى كذلك إلى آخر الزمان.. فقد غيرت هذه الدعوة القبائل العربية، التي كانت تعيش على الغزو والسلب والنهب، فجعلت منهم أمة واحدة، يسود بين أفرادها المودة والرحمة والتعاطف والتكامل، بحيث أصبح المجتمع الإسلامي جسدا واحدا، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.. وهكذا نقلت هذه الدعوة العرب من المرحلة القبلية، إلى مرحلة الأمة، في سنوات قليلة لا تعد شيئا في عمر الزمان، وإن هذه النقلة – لعمري – نقلة متميزة، لم تستطع أية دعوة أخرى في تاريخ البشرية أن تحققها خلال تلك المدة الزمنية القياسية.

فكيف – يا ترى – استطاعت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أن تحقق هذه المأثرة؟

لا ريب في أنه توافر لهذه الدعوة عوامل عديدة بفضل الله، ساعدتها على اختصار عامل الزمن، وتعجيل الوصول إلى الأهداف المنشودة، ويأتي في مقدمة تلك العوامل عاملان، هما:

أ – تأزيم الصراع الفكري (أو العقيدي) بين الجماعة المسلمة، وبين المشركين في مكة ، وقد تم ذلك على طريقة الرجل الصالح، الذي عرضنا قصته كما جاءت في سورة يس، أي بالجهر بالدعوة، ومقارعة الحجة بالحجة، مع الحرص على تجنب إقحام الصراعات القبلية في هذه القضية، وتجنب الدخول في صراع

مسلح، وبخاصة أن الجماعة المؤمنة لم تكن قد ملكت بعد عدة هذا الصراع.. وقد انتهت هذه المرحلة إلى تميز الجماعة المؤمنة، ووضوح الأصول العقيدية التي تدعو إليها، وختمت هذه المرحلة بالهجرة إلى يثرب.

ب – وأما العامل الآخر الذي ساهم في اختزال الفترة الزمنية اللازمة للتغيير، فهو نزول أمر الله عز وجل بقتال المشركين، ومواجهتهم مواجهة عسكرية مسلحة، وقد تم ذلك بعد أن استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأقام فيها دولة الإسلام، وأصبح له هناك منعة، ودار وأنصار.. ويلاحظ عندما حدث الصدام المسلح بين معسكر الإيمان، ومعسكر الكفر، أن الصراع بينهما أخذ يزداد حدة، مما عجل في وضع النهاية المحتومة لمعسكر الكفر، الذي استسلم سريعا للدعوة الجديدة، وهذا ما حصل بفتح مكة المكرمة ، حين بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا، واستقر الأمر في الجزيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. وذلك كله في سنوات قليلة، ولكنها سنوات حافلة بالتخطيط والإعداد، والجهاد والتضحية

***

وبهذا نكون قد عرضنا – بشيء من التفصيل – الشروط التي تقوم عليها سنة التغيير الاجتماعي، وهي:

الفكرة (العقيدة) + الإنسان + الزمن ونعود هنا فنؤكد أن سنة التغيير الاجتماعي، مثلها مثل أية سنة أخرى من السنن، التي فطر الله عليها أمور الخلق.. لا تتم إلا أن تتوافر لها الشروط اللازمة، وتنتفي الموانع التي تحول دون تحقيقها.. مع العلم بأن الموانع التي يمكن أن تقف حجر عثرة، وتعيق إنفاذ سنة التغيير كثيرة جدا، وهي تتفاوت في تأثيرها على مسار العملية، إلا أن النقطة الحاسمة في الأمر هي توفير الشروط اللازمة للتغيير، فمتى توفرت هذه الشروط، وتوفر إلى جانبها الإخلاص، والجهد المكافئ الواعي، فإن التغلب على الموانع يغدو ممكنا بإذن الله.

***

الفصل الثالث: معالم في طريق الحل

(ليس بأمانيكم)

إن موضوع البحث في (سنن الله في الخلق) لم يلق حتى الآن الاهتمام اللائق به من قبل المفكرين الإسلاميين المعاصرين، وبخاصة منهم الذين ينتمون إلى الجماعات الإسلامية، التي تصدت لقيادة العمل الإسلامي، ووضعت نصب أعينها القيام بتغيير اجتماعي ونفسي متميز في المجتمعات الإسلامية، يهدف إلى نقل هذه المجتمعات من حال الضعف والجهل والتخلف والبعد عن منهج الله، إلى حال القوة والسيادة والالتزام بشريعة الله.

ولقد أدى إغفال دور السنن في الجهد البشري، إلى جعل التكوين الفكري لهذه الجماعات أقرب إلى المثالية النظرية، منه إلى الواقعية العملية، وجعل غالبية الجماعات (إن لم نقل كلها) تدور في حلقات مفرغة، لا تدري كيف تخرج منها، فهي – من جهة – تحس بالأزمة التي تعيشها، ولكنها –من جهة أخرى– لم تتقن بعد كيفية التعامل مع هذه الأزمة، للخروج منها بحل واقعي معقول وربما ساهم في تعقيد الأزمة، وترسيخ هذا الوضع الغريب، أن معظم المناهج الفكرية التي سارت عليها الجماعات الإسلامية المعاصرة، عمدت إلى تناول القضايا بعقلية ذرائعية، تميل إلى منطق التبرير والاستسهال.. فما أسهل أن نتذرع بأسباب مختلفة لننفي عن أنفسنا مسئولية ما وقعنا فيه من أخطاء.. وما أيسر أن نرد النتائج المخيبة للأمل إلى قضاء الله وقدره.. وكأن مثل هذا الرد يعفينا من المسئولية أمام الله عز وجل

وأما بذل الجهد في البحث الدؤوب عن جذور الأزمة، ومعرفة أسبابها، وتحليل ملابساتها تحليلا علميا دقيقا، فليس هذ كله من شأننا؟

ولعلنا – بما قدمناه في الفصول السابقة حول مفهوم (السنة، والمفاهيم الأخرى، التي عرضناها على ضوء هذا المفهوم، نكون قد اقتربنا خطوة من نقطة البداية في تناول هذه الأزمة.. ولا بأس أن نعود في هذه الخاتمة، فنلخص أبرز النتائج التي خرجنا بها من البحث، والتي يمكن أن نعدها بمثابة معالم، تعيننا

على فهم طبيعة الأزمة، وترشدنا في الوقت نفسه إلى الطريقة العملية لتجاوز العقبات، التي تحول دون حل هذه الأزمة.. ونجمل هذه المعالم فيما يلي:

1 – إن لهذا الكون ربا، خلق كل ما في هذا الكون من خلائق، وأخضعها جميعها لسنن (قوانين) تحكم كل صغيرة وكبيرة منها.

2 – وتتصف هذه السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، بمجموعة من الصفات، التي تعطيها صبغة القانون الرياضي الصارم، فهي –من جهة– ثابتة لا تتبدل ولا تتحول وهي من جهة ثانية – مطردة، تتكرر على الوتيرة ذاتها كلما توافرت شروطها وانتفت الموانع، التي تحول دون بلوغها غايتها، وهي – من جهة ثالثة – أحادية لا تقبل التعدد، أي أن لكل أمر في هذا الوجود سنة مخصوصة، لا يتم إلا من خلالها ولا يمكن الوصول إليه بغيرها من السنن.

3 – وسنن الله في الخلق تسري على كل شيء في هذا الوجود من غير تمييز، سواء أكان هذا الشيء ماديا أم معنويا، ونحن البشر خاضعون كغيرنا من خلائق هذا الوجود لسنن الله هذه، شئنا ذلك أم أبينا، وهذه الحقيقة تحتم علينا مسايرة هذه السنن، لكي نتمكن من تسخيرها فيما ينفعنا، وإلا فإن مخالفة السنن أو معاندتها لا يأتي بخير أبدا، بل فيه الخسارة الأكيدة دون ريب.

4 – وإن أي عمل نقوم به يعتمد على سنة أو أكثر من السنن، التي فطر الله عليها أمور خلقه، يقتضي ضرورة معرفة تلك السنة (أو السنن) قبل الشروع في العمل، فإذا ما عرفنا السنة، وجب علينا أن نهيئ الشروط اللازمة لها، إن كنا حقا نريد إنجاز العمل المطلوب.

5 – فإذا ما فشلنا في إنجاز العمل المطلوب فإن هذا الفشل يعني وقوع خلل ما في الخطة، ويمكن أن نحصر مواضع الخلل هذا في ثلاثة مواضع رئيسة:

أ – عدم سلوك الطريق الصحيح نحو الهدف، أو عدم إصابة السنة التي توافق العمل، الذي نريد إنجازه.

ب – وجود عوامل داخلية تؤدي إلى الإخلال بشرط أو أكثر من الشروط اللازمة لتحقيق السنة التي تتحكم بالعمل.

ج – وجود عوامل خارجية تحول دون تحقيق السنة وبلوغها غايتها. ففي كل مرة نعجز عن إنجاز العمل، أو الوصول إلى الهدف، يجب أن نكون على يقين من أن هناك خللا قد حصل فعلا، مما يحتم علينا العودة للبحث من جديد عن مصدر هذا الخلل، ومراجعة ما سبق إنجازه من مراحل.. حتى نستطيع تصحيح المسار، وتدارك الأزمة قبل أن تستفحل.. فإن فعلنا هذا وصلنا بإذن الله إلى ما نريد، وإلا فإن الفشل سيكون من نصيبنا ثانية.. وثالثة.. ورابعة..

ونود أن نذكر هنا بحقيقة هامة قلما تنال حقها من الاهتمام من قبل الباحثين، الذين يتناولون مشكلة التخلف في ديار المسلمين عامة، ومشكلة العمل الإسلامي بصورة خاصة، فإن اهتمام هؤلاء ينصرف في معظمه نحو (العوامل الخارجية) بينما لا يحظى العاملان الآخران بالعناية الكافية، مما يجعل البحوث التي تتناول المشكلة تدور خارج إطارها الحقيقي، وليس في صميمها.. ويمكن أن نشبه هذا التناول القاصر للمشكلة بسلوك الطبيب الذي يعالج مظاهر الحمى والصداع، ويغفل عن علاج الجرثومة التي تعيث في جسد المريض فسادا.

ولا نحسب أن اثنين يختلفان حول الحقيقة الجوهرية التالية، وهي أن البحث في أية مشكلة يتطلب ابتداء تحديد طبيعتها، قبل الشروع في وضع الحلول لها..

وما دمنا قد علمنا بأن أي عمل يقوم به الإنسان إنما يخضع لسنن مخصوصة، فإن دراسة أية مشكلة، يستلزم معرفة السنن، التي تتعلق بها.. ونضرب لهذا مثلا قريبا.. فالأمراض السارية التي ظلت قرونا طويلة تفتك بالبشر، استطاع العلماء أخيرا أن يعرفوا السنة، التي تخضع لها، ومؤدى هذه السنة أن هذه الأمراض تحصل عندما تنتقل جرثومة المرض من مصدر خارجي إلى جسم إنسان لديه القابلية للعدوى والمرض.. وعندما عرف الأطباء هذه السنة، أصبحوا قادرين – بمشيئة الله – على معالجة هذه الأمراض الفتاكة، بينما كان الناس – قبل اكتشاف السنة التي تخضع لها هذه الأمراض – يتخبطون في معالجتها، فكانوا يلجأون للسحر والشعوذة تارة، وكانوا يلجأون لأساليب أخرى تارة أخرى، كأن يضربوا المريض ضربا

مبرحا، أو يغطسوه في الماء المغلي؛ لأنهم – بسبب جهلهم بسنة المرض – كانوا ينسبونه إلى الأرواح الشريرة، ويظنون الضرب أو الماء المغلي يمكن أن يطرد تلك الأرواح.

وقد نعذر القدماء في تخبطهم بالمعالجة على تلك الشاكلة؛ لأنهم لم يكونوا يعلمون شيئا من أسرار المرض، ولكن.. هل لنا – نحن أبناء القرن العشرين – من عذر إن نحن سلكنا اليوم مسلك القدماء نفسه في معالجة المرض، بعد أن عرفنا سر الجراثيم، وتأثير المضادات الحيوية فيها؟

بالطبع.. لا

ولكن.. مع هذا، وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة البديهية، فإننا ما نزال نقع في الخطأ نفسه، ونتخبط في معالجة كثير من المشكلات، فنلجأ إلى (الضرب) في معالجتها، على طريقة الأقدمين في طرد الأرواح الشريرة.

وكثيرا ما نتساءل في استغراب حائر بعدما حصل: كيف لم نصل إلى حل مع أننا بذلنا غاية جهدنا؟

والجواب على هذا التساؤل الساذج واضح لا لبس فيه، فنحن لم نسلك الطريق الصحيح إلى الحل، ولم نبذل الجهد في محله، فذهب هباءً منثورا.

***

واقعنا المعاصر

.. وحين ينظر أي مسلم غيور على أمته ودينه إلى حال هذه الأمة اليوم، فإنه لا يشعر بالرضى أبدا، لأنه يراها في حال من الضعف والهوان، وقد تكالبت عليها أمم الأرض قاطبة، حتى باتت نهبا لكل طامع.

ونتساءل من جديد (ذلك السؤال القديم الساذج) : أَنَّى هذا؟ وكأننا بهذا السؤال ننفي تبعة هذه الحال عن أنفسنا، والله عز وجل يقول: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) (الشورى: 30) .

أجل إن هذا الحال من أنفسنا نحن، من غفلتنا عن منهج الله، وعن سننه في الخلق، وإن واقعنا ليشهد بهذه الحقيقة بلا جدال.. ولنأخذ – على سبيل المثال لا الحصر – بعض السنن التي جعلها الله طريقا للفلاح والنجاح والسيادة، ثم لننظر كيف فرطنا بها، ففرط الله بنا.. فقد جعل الله عز وجل سنة للنصر لا تتخلف إلى يوم القيامة، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: 2) .. وها نحن مهزومون في كل ميدان، أمام أنفسنا، وأمام أعدائنا.. مما يعني أننا لم ننصر الله حق نصره

كما جعل الله عز وجل سنة لإرهاب العدو، وقذف الرعب في قلبه، فقال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهِ يَعْلَمُهُمْ) (الأنفال: 60) .. فماذا يقدم لنا واقعنا الحالي؟ إنه يقدم لنا صورة مهزوزة هزيلة غير هذه الصورة، التي أمرنا الله أن نكون عليها، إذ نرى ديارنا تعيش اليوم تحت رحمة الدول المستكبرة الكافرة، بعد أن كنا سادة الأرض.. وقد نزع الله رهبتنا من قلوب أعدائنا، فلا يقيمون لنا وزنا، ولا يلتفتون إلى رأينا حتى في القرارات المتعلقة بمصيرنا نحن.

وجعل الله عز وجل للبركة والغنى وسعة الرزق سنة كريمة، فقال تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لفتحنا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (الأعراف: 96) .. وها هي ذي ديارنا تعاني من الفقر والجوع، والجهل والمرض، على الرغم مما تزخر به أراضينا من ثروات هائلة.. مما يعني أن نفوسنا تعيش اليوم أزمة إيمان وتقوى. (ولا حول ولا قوة إلا بالله)

وهكذا.. إن أردنا أن نعدد السنن التي أخللنا بها في واقع حياتنا لأعيانا العد، وكأننا لم نسمع قول الله جلت قدرته، وهو يتوعد الذين يخالفون عن أمره أشد وعيد: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور: 63) بل إنه سبحانه ليتوعدهم بما هو أشد من ذلك.. إنه يتوعدهم بالهلاك ((وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد: 38) .

***

حقيقة لا بد من الاعتراف بها، على الرغم من مرارتها.. إننا اليوم نعيش في غفلة عن سنة الله في الخلق، مع أننا لا نفتأ نردد ليلا ونهارا قول الحق تبارك وتعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (آل عمران: 137) ونردد كذلك قوله تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مَنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) (النساء: 123) ثم.. لا نعمل بمقتضى هذه التوجيهات الربانية الحكيمة.

فلا نحن نسير في الأرض، فننظر كيف سارت حياة الأمم التي سبقتنا، فنعتبر بها، ونأخذ السنن التي تعيننا على أداء أمانة الاستخلاف، كما أمرنا رب العزة سبحانه.

ولا نحن نتعامل مع الوجود من حولنا تعاملا واقعيا يراعي سنن الله في هذا الوجود، بل نتعامل معه تعاملا خياليا ينبع من الأماني والأحلام.. ونحسب – فوق هذا – أننا أصحاب امتياز على سائر الأمم الأخرى، مادمنا مسلمين، دون أن نعطي هذا الإسلام حقه في العلم والإخلاص والتضحية.

فهل نستغرب بعد هذا، ونحن نسير عكس الريح، ألاّ يصل المركب بنا إلى حيث نريد؟

ولعل أعجب ما في أزمتنا أننا – على الرغم من كل الأخطاء التي نرتكبها – أننا لا نعجز عن اختلاق المبررات والأعذار أمام أنفسنا وأمام الآخرين.. فما أيسر أن نتهم الريح أنها جاءت من الشرق، بدل أن تأتي من الغرب، وأما الاعتراف بأننا أخطأنا فوضعنا المركب عكس الريح.. فهذا ما لا يكون أبدا.

وعلى هذه الشاكلة النكدة، تمضي سيرتنا مع كل قضية نواجهها، فنتعامل معها من منطلق أننا دوما على صواب، ونزعم أن الظروف الخارجية لم تكن مواتية، وأنها هي التي ارتكبت الخطأ، لا نحن.. وعلى هذا

المنوال تدخل القضية في متاهة (الاستحالة) ولا يبقى علينا إلا أن نسدل عليها الأردية القاتمة، لنخفيها حتى عن أنفسنا، وكأن إخفاءها سيغير من واقع الحال شيئا.

***

معالم في طريق الحل

.. إلى الذين تؤرقهم حال هذه الأمة، وتقض مضاجعهم، أقول: إن الطريق إلى الخروج من أزمتنا سهل وميسور حين نحزم أمرنا، ونعد عدتنا، ونجد السير في هذا الطريق الذي يمكن أن نتبين أهم معالمه فيما يلي..

إن تغيير الحال التي نحن عليها اليوم لا يمكن أن يتم دون أن نغير ما بأنفسنا، فهذه سنة من السنن المطردة التي فطر الله عليها أمور خلقه، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: 11) .

وإن تغيير ما بأنفسنا لا يتم إلا أن نواجه مشكلاتنا مواجهة صادقة، لا مواربة فيها ولا أعذار، لنعرف مواطن الانحراف فنقومها، ونكشف مواضع الخلل فنصلحها، ونحدد نقاط الضعف فنقويها..

وليكن الإحسان والصواب ضالتنا المنشودة (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة: 195) ، ((الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)) مع العلم بأن من أهم معاني الصواب معرفة السنن، التي بموجبها نحقق وظيفتنا في هذه الحياة، والتي بينها الله عز وجل في قوله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56) ، وأما الإحسان فهو تهيئة الشروط اللازمة، حتى تفعل هذه السنن فعلها، وتمضي بنا نحو الحضارة الإنسانية التي نتطلع إليها.

ولنكن على بينة من أن المضي في طريق هذه غايته، لا يمكن أن يكتب له النجاح دون علم وجهد وجهاد وصبر ومصابرة، ودون إخلاص لله، وتقوى، واستعداد للتضحية.

فإننا بمثل هذه العدة يمكن أن نخرج من أزمتنا بإذن الله.. ونبدأ أولى خطواتنا في درب الصعود..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.